

ألمانيا الاتحادية (الغربية)

(١)

مع أن فرانكفورت هي مركز المواصلات الجوية العالمية ومدينة المال والبنوك ومؤسسات التأمين والحركة النشطة الدائمة إلا أنني وجدتها من فور وصولي إليها عكس ذلك، المدينة هادئة هدوء العدم. الناس اختفت تماماً من الشارع. المتاجر مغلقة بالضبة والمفتاح وسائل المواصلات قليلة خالية فالركاب نادرون. السحب الكثيفة تحجب ضوء الشمس مع أننا في عز الظهر. المطر يهطل بدرجات مختلفة في المنطقة الواحدة على الرغم من أننا في منتصف شهر يونيو، ووجدت الملل يتسرب إلى نفسى. والضيق يكاد يسيطر على كيانى. أين الناس؟ ماذا أفعل؟

وتذكرت بيت أمير الشعراء أحمد شوقى:

أنا من بدل بالكتب الصحابا

لم أجد لى واقيا إلا الكتابا

وصعدت إلى حجرى فى الفندق، وأخرجت من الحقيبة مجموعة مختارة من الكتب التى أحضرتها معى.. وما دمت فى ألمانيا فلأقرأ شيئاً عن تاريخها وفنونها وآدابها. ومن منا لم يطرب لموسيقى عبقرى النغم (بيتهوفن) أو لم ينتش بأشعار شاعر ألمانيا الفحل (جيتته). أو يختلف ويتفق مع الفيلسوف الجرىء (نيتشه) إذا لأقرأ لهؤلاء حتى تغفو عينائى، ويأتى الصباح؛ والصباح كما نقول رباح وتصيح على خير.

* * *

فى صباح اليوم التالى استيقظت مبكراً، وحضر مرافقى، فكان طبيعياً أن أسأله: ماذا جرى للمدينة؟ وأين سكانها، لقد كان أمس الإثنين وليس السبت أو الأحد؟

أجابنى بهدوء: أمس كان عطلة رسمية واليوم أيضاً سيكون نصف عطلة بمناسبة عيد حلول الروح القدس على تلاميذ السيد المسيح بعد صعوده.

وهل ألمانيا كلها فى عطلة؟

نعم ألمانيا كلها كانت فى اجازة أمس، أما اليوم فمدينة فرانكفورت فقط هى التى تعطل نصف يوم لأن أهلها أكثر تديناً من الآخرين.

والآن ماذا تريد أن ترى وتزور اليوم؟

قلت: كما تحب، ولكنى سمعت أن لديكم حديقة حيوان فريدة رائعة وهى من الحدائق المشهورة فى العالم.

إذن هيا بنا إليها.. تاكسى..

ومن السهل الحصول على تاكسى شيك مريح وثير غالباً من ماركة مرسيدس والسرعة هى السمة الغالبة على السائقين، فالسيارة تنهب الأرض نهياً، وتقطع أطول المسافات فى وقت قليل، يساعدها على ذلك انضباط المرور وعدم وجود مطبات، والإشارات كلها أوتوماتيكية، ومن هنا اختفى رجل المرور من الشارع، والناس تحترم الإشارة جداً فلا أحد يعبر الطريق إلا إذا كانت الإشارة خضراء، وهذا بلا شك يسهل المرور ويساعد على سيولته ويمنع الحوادث.. فى لحظات وصلنا إلى حديقة الحيوان، رسم الدخول خمسة ماركات للكبار واثان ونصف مارك للأطفال الصغار، فحديقة الحيوان هى مدرسة خاصة على الطبيعة للطفل، وفى عطلة آخر الأسبوع ينخفض رسم الدخول إلى النصف بالنسبة للجميع. الحديقة مقامة على مساحة شاسعة، ولذا قال لى مرافقى: إذا كنت تود مشاهدة كل جوانب وحيوانات الحديقة فستحتاج إلى ثمان ساعات على الأقل.

فابتسمت قائلاً: فلنكتف بفكرة عامة عنها؛ لكنى ما لبثت حتى نظرت مذعوراً لمرافقى وقلت كيف يتركون الأسد يسير حراً

هكذا؟ إنه قريب جداً منا.

إنه حر ولكن في أرضه وبيننا وبينه بحيرة تمنعه من الوصول إلينا ودققت النظر فإذا بي أجد بحيرة لم ألاحظها منذ البداية وأعتقد أن الزائر لن يلاحظها أيضاً..

وهكذا كل الحيوانات توجد في أماكن فسيحة حرة تفعل ما تشاء وتراها فتعتقد أنها سهلة الوصول إليك ولكنها لن تصل إليك. قل هذا بالنسبة إلى الدب والأسد والذئب والحمار الوحشى وغيرها، والطريف أنهم أتاحوا لكل حيوان الجو الملائم له والذى كان يعيش فيه أصلاً مما جعل الحيوانات هادئة بل ناعسة، فهذا أسد مستغرق في نوم عميق، وذلك فيل في حالة استرخاء تام.

وبينما كنا نسير في الحديقة إذا بالطاووس ذى الريش الجميل يسير بيننا وسط مداعبة الأطفال له واستعراضه لجمال ريشه وألوانه الزاهية الخضراء والزرقاء المتدرجة.

ودلفنا إلى مكان مظلم عرفت أنه مخصص للحيوانات التى تنام أثناء النهار وتصحو ليلاً، وحتى يراها زوار الحديقة فقد هبتوا لها جو الليل. الهدوء الكامل والأضواء الخافتة جداً، والأصوات التى تنتشر فى الليل فى بلادها كصوت الضفادع أو غيرها وهذه هى الفرصة الوحيدة التى يمكن لأى إنسان أن يرى تلك الحيوانات. أنواع كثيرة من الفئران والققط تبلى العشرات وأخرى من الدببة والقردة والسلاحف والزواحف من كل بلاد العالم.

وقريبا من هذا المكان وجدت قردة جميلة حقًا فسألت: هل تعيش هذه القرودة في أثناء الليل أيضًا؟ فقال مرافقي: لا، وإنما هم يحافظون عليها لأنها قرودة نادرة لا يوجد منها إلا زوجان فقط وقد جاءت من أمريكا اللاتينية.. سبحان الله إنها جميلة حقًا شعرها ناعم مختلط الألوان يجمع بين الأصفر والبني.. تتحرك في شقاوة محببة ودلال يعبر عن اعتزازها بنفسها، حجمها متوسط وملاحظها واضحة متناسبة، حتى القرودة يوجد فيها أنواع جميلة.. إنها قدرة الخالق المبدع.

وهناك قسم خاص للأحياء المائية ترى بداخله الأسماك مختلفة الأحجام والألوان تبدأ من ٢ سنتيمتر وتنتهى بأكثر من مترين، أنواع عديدة، منها ما تعرفها وأخرى لا تعرفها، منها سمك القرش والبلطى والثعبان وأم الشعور والقواقع المختلفة، وقد وضعت بحيث تراها وهى فى أعماق المياه أو وهى تطفو على سطحها وهكذا. رؤية على الطبيعة تعادل عشرات الدروس النظرية، ثم قسم خاص للحشرات أشبه بموسوعة عملية تشبع نهمك للمعرفة إذا كنت تريد، لقد سرقنا الوقت داخل الحديقة الرائعة بين الدهشة والانبهار وفى أثناء خروجنا أشار مرافقى إلى فتاة جميلة تجلس فى مطبخ نظيف مجهز بكل شئ وقال: هذا المطبخ مخصص للحيوانات وهذه الفتاة هى المسئولة عن إطعامها وتغذيتها.

في المساء دعاني مرافقي لزيارة الحى القديم في فرانكفورت
وفي الطريق من قلب المدينة إلى الحى القديم بدأ الصخب ودبت
الحياة في كل شىء، قلب المدينة يعج بالشباب، ألحان وأغنيات
حديثه تنبعث من داخل الكافتریات والبارات الصغيرة المنتشرة
على الجانبين، رنين أجراس الكنائس الكثيرة المتعددة المذاهب
تختلط بالأغنيات والموسيقى فتشكل سيمفونية خاصة تعبر عن
الدنيا والدين، عمارات شاهقة ليست عمارات سكنية وإنما هى
بنوك تتكون من حوالى ٤٤ طابقاً فرانكفورت هى مدينة المال
والبنوك فيها حوالى ٣٥٠ بنكاً من هذا الطراز الرائع الضخم
المرتفع إلى عنان السماء وألحظ نوعاً من مركبات الترام تمر أمامى
ولكنها غير عادية ألوانها زاهية وعليها رسوم فنية جميلة لأشخاص
وراقصات، ثم إن الترام يقدم المشروبات لركابه ولا بد لمن يركبه
أن يجد مكاناً وإلا تركه وعندما لحظ مرافقى دهشتى ابتسم قائلاً:
هذا ترام السعادة يسير في عطلة آخر الأسبوع أو العطلات
الرسمية فقط ليجول بالمواطنين في المدينة وهم يحتسون المشروبات
التي يفضلونها وبخاصة خمر التفاح الشهير في ألمانيا. ثم نصل إلى
نهر ماين Main الذى يميز اسم فرانكفورت هذه، فهم يقولون
فرانكفورت ماين، وذلك لأن هناك مدينة أخرى بنفس الاسم في
جمهورية ألمانيا الديمقراطية، ونهر ماين هذا ملئ بالحيوية وحركة
المراكب الصغيرة والكبيرة، والناس الذين يتنزهون على شاطئيه،
وما هى إلا دقائق معدودات حتى كنا في فرانكفورت القديمة، الحى

يحتفظ بكل مقوماته التقليدية القديمة، طراز البناء من القرن الرابع عشر تقريباً، الشوارع ضيقة الحانات متلاصقة الأرض من البلاط القديم، الشباب يحتسى البيرة حتى الثمالة في أكواب وكؤوس شبيهة بالتي كان آباؤهم يستخدمونها، كل شيء تقليدي هنا، القانون يمنع تغيير أى طراز للمباني أو أى لون لها، فهم يعملون للمحافظة عليها كقطعة من التراث، فالشباب يذهب إليها دائماً، وكذلك السياح يفدون إليها بحثاً عن الحياة الكلاسيكية المنتهية ومن هنا فإن أسعارها أغلى من الأماكن الأخرى الحديثة سواء في المتاجر أو الحانات، جلسنا بعض الوقت في إحدى هذه الحانات وشربنا البيرة وعصير التفاح، ثم أتت فتاة إلينا ضاحكة وفي يدها بمبوني كثير وعزمت علينا فأخذنا منها حتى لا نكسفها وكذلك فعل كل الموجودين، وهي توزع هذا البمبوني مجاناً لا تريد شيئاً إلا الابتسامة على وجوه الناس، قلت لنفسى، الحمد لله أنها تعطي لا تطلب، وحبذا لو فعل كل الشباب هكذا وأعطى لا بمبوني وحسب بل عملاً وعرقاً وجهداً يدفع بالعالم كله إلى الأمام إلى الرخاء.

في طريق العودة شدتني ثلاثة تماثيل لفتيات رائعات الجمال لكن جملهن مشوه بطريقة لا إنسانية واضحة، إنه متحف صغير لفنان ألماني يدعى «شولتز» Schultz اختار عنواناً لفته «الإنسانية المعذبة» واهتم بأن يشكل ثلاثة تماثيل لفتيات رائعات الجمال

بالوان الطبيعية الحية حتى يخيل إليك أنك أمام فتيات مشوهات فعلاً، عاريات الجسد، وقد قطعت رأس إحداهن وتركزت على يدها كذلك شوه وجه أخرى تماماً مع أن جسمها ينبض بالحياة والجبال، أما الثالثة فقد أصاب التشويه معالم جسمها عامة، سألت صديقي ماذا يقصد هذا الفنان؟ أهو يريد أن يشرح لنا مآسى الحروب ومساوئها؟ وانتظر برهة ثم قرأ ما كتبه الفنان بالألمانية تحت تماثيله وقال: إنه يرمز لحياة الإنسان المعذبة دائماً، فالإنسان يعيش في ملحمة من العذاب هو بطلها الأول والأخير.. حقيقة لقد أبدع هذا الفنان في التعبير عما يريد وما تختلج به نفسه، وجعلنا نحس إحساسه ونشاركه حزنه على الإنسانية المعذبة وكأنه يقول مع جان بول سارتر فيلسوف الوجودية الراحل: «الإنسان حماسة لا فائدة فيها» ومع ذلك لا بد لنا من التفاؤل والعمل الجاد من أجل أن نحول الإنسانية المعذبة إلى إنسانية سعيدة متمتعة بجمال الحياة.

(٢)

هناك وجه آخر مشرق لمدينة فرانكفورت.. هو الوجه الأدبي والفكري، فهي مركز معرض الكتاب الدولي الذي يقام فيها كل عام ويهدف إلى العرض والبيع معاً وقد سجل عام ١٩٧٩ رقماً قياسياً في عدد المشتركين بلغ ٥٠١٤ دار نشر. كما يتميز المعرض بإهداء جائزة السلام في كل عام لتجارة الكتب الألمانية.

وفرانكفورت هي مسقط رأس شاعر ألمانيا الفحل الجهبذ «جوتة» الذي يوجد معهد باسمه في القاهرة، والزائر هنا لابد وأن يزور بيت جوتة الذي يقع في حي هادئ جميل. ثم تجول في البيت لترى آثار أمير شعراء ألمانيا الذي أحب الإنسان في كل مكان وترى حجراته المضيئة والمكتب الصغير الذي كان يدرس عليه وصورة والدته تعلوه والكتب التي كان يحتفظ بها.



جوتة أشهر أدباء القرنين ١٨، ١٩
من فرانكفورت - ألمانيا الغربية
عاش سنة ١٧٤٩ إلى ١٨٣٢

وعظمة شاعرنا «جوهان فلفجانج فون جيته» ترجع إلى أنه كان زعيم الثورة الفكرية في القرن الثامن عشر، فقد ولد عام ١٧٤٩ لأب كان يعمل مستشاراً للممثل الإمبراطوري لفرانكفورت وأم مثقفة بسيطة واسعة الاطلاع صغيرة السن، فقد ولدته وهي لا تعدو الثانية عشر ربيعاً من عمرها، وكأى أم فقد كانت تحكى لابنها قصصاً وحكايات تعرفها، بل وتؤلف قصصاً من عندها له وتساعده على وضع نهاية لها، ويبدو أن هذه الطريقة

ساعدت شاعرنا منذ طفولته على حب الأدب والقصص، وفي ذلك يقول جيته: أنا مدين لأمى الصغيرة بحبى لرواية القصص.. وقد برزت وانجلت موهبة صاحبنا مبكرة على غير العادة، فهو في عامه السادس يثور على الله، وفي عامه السابع يشك في عدالة الناس، وفي عامه الثامن ينشر مقالاً باللغة اللاتينية يوازن فيه بين حكمة الوثنيين وحكمة المسيحيين. ثم يكتب وهو في الحادية عشرة قصة عالمية، ويشارك في عامه الثاني عشر في مبارزة، ويقع في عامه الرابع عشر في غرام عنيف أكبر من عمره ويظل قلبه ينبض بالحب والحياة طوال حياته حتى يقع مرة أخيرة في غرام وهو في العام الرابع والسبعين.

اهتم والده بتشجيعه على دراسة القانون حتى يصبح أستاذاً بالجامعة، لكن جيته كان محباً للأدب أكثر ومع ذلك التحق بجامعة ليبزج عام ١٧٦٥ إرضاء لأبيه وجعل من تجارب الحياة معهداً خاصاً ينهل منه المعرفة وخالط الناس في المجتمع على اختلاف مشاربهم وجرب الخمر والنساء وطالع روائع هوميروس وشكسبير وكان يحيل تجاربه إلى قصائد وأغنيات ثم يبحث عن تجارب جديدة وهكذا.

في السابعة عشرة من عمره كتب جيته مسرحيته الأولى تحت عنوان «الزملاء الخاطئون»، والذي يلفت النظر أنه اختار موضوعاً أكبر من سنه وهو جرائم المتزوجين ومشاكلهم، وظل

ينهل من المعرفة واللذة حتى أصيب في صيف عام ١٧٦٨ بمرض تناسلي خطير هدد حياته ولكنه نجا منه وهرب إلى الفن، تعلم العزف على القيثارة وأصبح شاعراً حساساً وفناناً رقيقاً، وغدا زعيم المثقفين باستراسبورج يمشى معتزلاً بنفسه منتشياً بشبابه مفتخراً بفروسيته حتى أدار رءوس نساء استراسبورج، ومع سهولة وقوعه في الحب كان سهل النسيان أيضاً، إنه يخرج من كل تجربة بقصيدة يفرغ فيها صدق إحساسه لملاحظتها ثم يبحث عن تجربة وقصيدة أخرى، ومع حبه للأدب وانغماسه في قاع المجتمع إلا أنه استطاع الحصول على درجة الدكتوراه في القانون وإن لم يعمل بها بعد ذلك.

يعتبر عام ١٧٧٥ من السنوات المهمة في حياة جوتة فقد دعاه أمير (فييار) إلى الإقامة معه وسرعان ما لبى الدعوة وعمل بجد ونشاط وقسم وقته بين الشعر والسياسة والرياضة حتى أصبحت (فييار) المركز الأدبي للعالم طوال خمسين عاماً، واشتهر صاحبنا بصفات حميدة أولها الجرأة في تناول المشاكل ومحاولة وضع حل لها ولكنه بالغ أحياناً، ففي إحدى مسرحياته مثلاً يسمح للبطل أن يحيا مع زوجته وعشيقته في وقت واحد وبرضاء الجميع وهو ما لا يتفق وطبيعة البشر وقد ثار الجمهور ضده وأجبره على تغيير النهاية فجعل البطل يطلق النار على رأسه. كذلك انصف جوتة بحبه للسلام فقد دعاه كارل أوجست في أثناء محاربته للفرنسيين

ليشاهد مناورات جنده فقبل الدعوة لكنه لم يهتم بالمعارك ولم يؤلف أغنيات لها وعندما أبدى أحدهم هذه الملحوظة له قال غاضباً «لم يحدث قط أن حملت النفس على قول لا أستشعره فأنا لم أنظم شعر الغزل إلا حين أحببت فإن لى إذن أن أكتب أناشيد البغضاء بينما لم أشعر ببغضاء».

هكذا كان جوتة جريئاً محباً للإنسانية والسلام، عطوفاً على الطبقات الدنيا فقد تصادق مع الخبازين والقصابين وصانعي الشمعدانات واهتم بإعالة غريبين من مرتبه الصغير، وربما يعود اهتمام جوتة بالطبقات الدنيا وقوله عنهم أنهم الأعلون عند الله لا مراء، أنه هو نفسه من الطبقات الدنيا، فقد كان جده الأعلى حداداً وجده المباشر خياطاً اهتم بتربية ابنه حتى جعله مستشاراً. كما صادق جوتة فنان النغم الصادق (بيتهوفن) والشاعر الرقيق (شيللر) وكانت صداقتها قصيدة رائعة.

تزوج جوتة من صديقتها (كريستيانا فولبين) ورزق منها بابن ملاً عليها وعليه حياتها لكن القدر لم يسمح لشاعرنا بالسعادة الدائمة، فقد مات صديقه الحميم (شيللر) ثم ماتت أخته وزوجته، وأخيراً مات ابنه الوحيد، لقد فقد كل أحبائه وأصاب الحزن قلبه، لكننا نجده بعد هذه السلسلة من المآسى ينتصر على حزنه ويجعل من مآسيه مادة لشعره فكتب ستين كتاباً عن مشاعره الروحية والعقلية بشعر غنائى مليء بالمراثى والسخریات وبشعر الملاحم

والمسرحيات وأما عن أعماله الثرية فقد كتب مقالات وقصصاً وحكايات خرافية عن العفاريت والأشباح والشياطين والآلهة، ومن أشعاره «الطبيعة»: يقول فيها: «الطبيعة تحيط بنا وتعانقنا ونحن عاجزون عن الخروج منها. كما نحن عاجزون عن الغور فيها. تأخذنا في مدارها الراقص دون إنذار وتحملنا في مسارها حتى يصيبنا الإعياء فنسقط بين ذراعيها.

على الدوام تخلق أشكالاً جديدة: ما يوجد لم يوجد من قبل، وما كان لا يعود فكل شيء جديد وبالرغم من ذلك فهو دائماً قديم، نعيش في أحضانها، ولكننا نعيش في أحضانها غرباء عنها، وهى تحدثنا بلا انقطاع، دون أن تفصح عن هويتها، ونحن نؤثر فيها على الدوام ولكن لا نملك أمرها.

تطبع كل شيء بطابع خاص، ولكن ليس في عرفها شيء خاص. تبنى بلا انقطاع وتهدم بلا انقطاع.

إننا أطفالها ولكن الأم، أين الأم؟ إنها الفنانة الوحيدة، فهى تخلق من أبسط المواد المتباينات ودون بريق من جهد تخلق الكمال.. كل عمل من أعمالها مخلوق بعينه، وكل ظاهرة من ظواهرها كيان بذاته وعلى الرغم من ذلك فالكل واحد».

وأخيراً أبدع معجزته الأدبية الخالدة وهى مسرحية فاوست التى استغرق فى كتابة نصفها الأول فقط ثلاثين سنة، أما نصفها

الثانى فقد أنجزه فى أكثر من ذلك وفى المسرحية يتخيل جوتة
مراهنة يعقدها الله والشيطان على روح الإنسان، الشيطان لا يؤمن
بالوجود الأفضل، ولا يحترم الإنسان، ويعتبر وجوده فى الزمان
والمكان غير ضرورى بالمرّة ومن هنا فهو لا يحب الخير للناس،
أما الله فقد خلق الإنسان ليكافح خلال مشاكل الحياة ويجاهد
ويخطئ لكنه يستفيد من خطئه وعن طريق الكفاح يشعر بحلاوة
الحياة، وأخيراً يصل إلى النور، ويتفق الشيطان مع الله على أن
يعرى الأول (الدكتور فاوست) ثم يريان أيستطيع تدمير الجزء
الخالد من روحه أم لا يستطيع واشترطاً فى الرهان على أن يعتبر
الشيطان فائزاً إذا وجد فاوست أن اللحظة المنقضية من وجود
الفانى قد بلغت من الجمال بحيث يبغض فاوست أن يغادر هذه
اللحظة إلى اللحظة التالية، وتحرك الشيطان بنشاط وأعاد الشباب
إلى فاوست العجوز وأغراه بكثير من متع الحياة.. الجمال.. الثراء..
الشهرة.. التمتع بالحب بغير تحمل مسؤولياته ويتنقل فاوست من
تجربة إلى أخرى دون أن يتوقف عند واحدة أو يكتفى ثم يصاب
بالعمى نتيجة إسرافه فى متع وهو الشباب وعندما يفكر فى التوقف
عن تجاربه يبدأ مشروعاً جديداً واسعاً لتجفيف المستنقعات قرب
البحر وإقامة بناء لسكنى البشر يسع الملايين، وهنا يشعر البطل
براحة نفسية، وبأن اللحظة الهامة التى يريد أن يوقفها ولا يتحرك
بعدها هى هذه، وهنا يشعر الشيطان بفخر ونشوة الانتصار، وأنه
كسب الرهان مع الله، لكن خاب ظنه عند تلك اللحظة بنزول

الملائكة وحمل روح فاوست إلى السماء، لقد ارتكب فاوست أكبر الأخطاء لكنه عن طريق هذا كله قد جاهد بفطرته ليبلغ النور.

بعد أن كتب جوتة مسرحيته الخالدة أعد أصدقاؤه احتفالاً كبيراً بمناسبة عيد ميلاده الثاني والثمانين، ومن عجب أنه هرب من الاحتفال إلى الجبال حيث استقر على كوخ يحمل له ذكرى عطرة وقرأ أسطراً كان قد خطها بنفسه على الحائط منذ سنين عديدة... تقول:

فوق قمم التلال كلها يرفرف السلام هادئاً.. وعلى رءوس الشجر قلما تلمح أقل نسمة.. وهذه صغار الطير قد سكنت أصواتها.. الصبر الآن.. فعما قليل ستريح أنت أيضاً.
وردد جوتة هذه الكلمات وكأنه يودع بها الحياة وعاد إلى بيته وبعد ستة أيام أسلم الروح وهو يردد.. مزيد من النور.. وذلك في الثاني والعشرين من شهر مارس عام ١٨٣٢.

تذكرت قصة حياة جوتة كاملة كشريط سينمائي وأنا في بيته وبخاصة وأنا في حجرته المضيئة فقد كان يجب النور وكانت آخر كلماته مزيد من النور.. وفي فرانكفورت وفي برلين ومعظم الولايات الألمانية تجد إعلانات كثيرة عن عرض مسرحية «فاوست» العمل الخالد لشاعرنا وهي تعرض دائماً خلال يومين، الجزء الأول في حفل ثم الجزء الثاني في حفل آخر.. وقال لى بعض أصدقائي الألمان أن الجزء الأول أكثر شعبية وفهماً من الجزء



- * أشهر ثلاث شخصيات في بون عاصمة ألمانيا الغربية
- * اديناور الذي اختار مدينة بون لتكون العاصمة
- * بيتهوفن أشهر فنان من بون
- * هيكل عظمي عثر عليه هناك، وهو يتير التساؤل هل الإنسان أصله قرد؟

الثاني، وهكذا الأديب الحق يخلد في وطنه بل وفي العالم كله مهما طالت السنون، وهكذا العمل الأدبي، إنهم يشاهدون الآن فاوست وكأنها مسرحية تعرض لأول مرة.

تركت بيت جوتة وعدت إلى الفندق لأجد مفاجأة سارة تعرض أمامي على الشاشة الصغيرة التليفزيون، إنه برنامج خاص عن أطفال وشباب مصر مصحوبًا بموسيقى فنان الأجيال محمد

عبد الوهاب ومطربة الجبل فيروز، ولك أن تتصور عزيزي القارئ مدى السعادة التي تغمرك وأنت تشاهد برنامجًا خاصًا عن مصر الحبيبة يعرض في بلد أجنبي وأنت فيها وحدك، لقد كان قلبي يدق فرحًا، ونفسي ترقص طربًا مع إيقاع موسيقانا الشرقية الحلوة، ولم أملك في النهاية إلا أن أصفق تحية للمخرج الألماني الذي سافر إلى مصر وسجل البرنامج (جورجن جاندلا).

(٣)

أبحرت من فرانكفورت إلى يون العاصمة عن طريق نهر الراين، وكانت رحلة ممتعة حقًا، والألمان يعرفون كيف يستغلون هذا النهر جيدًا فهو أهم محور للمواصلات من الشمال إلى الجنوب وطوال الرحلة التي استغرقت حوالي ست ساعات كان مذياع الباخرة يشرح لنا أهم المناطق الصناعية أو الأثرية التي نمر بها، وكانت المناظر رائعة، قصور قديمة وحدائق جميلة، ومحطات كثيرة لاستقبال مزيد من الركاب، وأسعدني الحظ بأن تكون الشمس مشرقة وهو ما كان نادرًا في أثناء زيارتي لكل مدن ألمانيا الاتحادية، مع أننا في النصف الثاني من شهر يونيو.

وتذكرت نيلنا العظيم الذي يجري بالحير والاستقرار منذ آلاف السنين، والذي قال عنه أبو التاريخ «هيرودوت»: إن مصر هبة النيل،

وتعجبت كيف أننا إلى الآن لم نستغل نهر النيل جيداً كوسيلة للمواصلات، وسيلة رخيصة هادئة ممتعة في نفس الوقت، إن نهر الراين الذى أبحر فيه الآن لا يزيد عن نهرنا جمالا ولا مساحة ولا عمقا فيما أعتقد، وأتني أن يأتي اليوم الذى أرى فيه نهرنا الخالد وقد أصبح وسيلة حية للمواصلات، إنه لن يكلفنا إلا القليل وحوادثه نادرة.. ليت ذلك يتم بإذن الله.

وأصل إلى «بون» عاصمة جمهورية ألمانيا الاتحادية منذ عام ١٩٤٩، إنها عاصمة صغيرة هادئة فهي مركز رئيس الدولة والبرلمان - والحكومة والسفارات الأجنبية، أجنب من كل بلاد العالم يأتون هنا بعضهم أو معظمهم يعملون، المطاعم هنا أثرية من القرن السابع عشر أو الثامن عشر أو التاسع عشر، فهم يفضلون الطراز القديم، هناك مطاعم عربية وتركية أيضا مثل مطعم على بابا الذى يقدم لك الطعام الشامى بأنواعه المختلفة الكبيرة والطعمية والحلويات الشرقية، كما يوجد مطعم مصرى بجانب محطة القطار، والطريف أن هذه المطاعم تكتب أسماءها وأنواع مأكولاتها باللغة العربية مما يشد أى زائر عربى ويجذبه لدخول المطعم، ومعظم العاملين فى مطاعم ألمانيا سواء هنا فى بون العاصمة أم فى كل المدن الأخرى ليسوا ألماناً، إنهم من اندونيسيا واليابان وبنجلاديش وإيران وإيطاليا وتونس وسوريا ولبنان ومصر وغيرها، ولا أجد تفسيراً لهذه الظاهرة إلا أن الألمان يفضلون العمل فى

أماكن أخرى حيث المال والفكر والتكنولوجيا، مع رخص الأيدي العاملة الأجنبية بالنسبة لأجورهم.

وتقول لغة الأرقام إن «بون» - وهي من أصغر عواصم أوروبا - يعيش فيها ٢٧٥٠٠ أجنبي ينتمون إلى ١٣٤ جنسية منهم خمسة آلاف دبلوماسي و ٤٤٠٠ تركي و ٢٢٠٠ أسباني و ٢١٠٠ إيطالي و ١٥٠٠ يوغوسلافي وعدد آخر من استراليا ودول المحيط.. وبلغت نسبة المشتغلين بين الأجانب ٥٥% مقابل ٣٩% بين السكان الألمان، ويبدو أن سكان العاصمة الألمانية يفضلون الزواج على حياة العزوبية فقد بلغ عدد حالات الزواج بين السكان الألمان خلال الأشهر الستة الأولى من عام ١٩٨٠: ٧١٥ زواجا، مقابل ٣٩ بين الأجانب و١٣٦ زواجا مختلطا بين الألمان والأجانب، وأصبح من السهل الآن الزواج بألمانية أو ألماني إذا قيس بالوضع القديم، فقد كان الألمان يفضلون الزواج بيني وطنهم وجنسياتهم لاعتزازهم الشديد بالدم الألماني، ومن الطريف أن نسبة المواليد الإناث في بون مرتفعة عن الذكور ولكن نسبة المواليد بعامة في العاصمة مرتفعة جدا عن باقي مدن ألمانيا الاتحادية، إذ تشهد مدن ألمانيا سنويا ميلاد مائة طفلة مقابل مائة وخمسة أطفال ذكور في حين تولد في بون ٦١٧ طفلة مقابل ٦١٥ طفلا ذكرا.

ويعيش في بون رئيس الجمهورية ومستشار ألمانيا وهو رئيس الوزراء، وفيها تقرر السياسة الخارجية لكل ألمانيا. فالألمانيا تتكون

من عشر ولايات كبيرة، بالإضافة إلى برلين التي تشكل وضعاً خاصاً ولكنها تابعة لها، وأقصد برلين الغربية بالطبع، ولكل ولاية رئيس للوزراء ووزراء يهتمون بشؤونها الخاصة، ولكل ولاية أيضاً قوانينها الخاصة وبرلمانها الشعبى الخاص الذى ينبثق منه البرلمان الكلى الممثل لألمانيا الاتحادية، وهكذا يبدو الحكم اللامركزى، فالشرطة مثلا من أجهزة الولايات الاتحادية، ولكل ولاية حق إصدار القوانين الخاصة بها، وهناك أحد عشر قانوناً للشرطة تختلف من ولاية لأخرى، وكان رجال الشرطة يرتدون أزياء تختلف فى كل ولاية عن الأخرى حتى عام ١٩٧٧، ثم تم توحيد الزي بعد ذلك، أما الجيش فهو تابع للحكومة الفدرالية مباشرة واسمه الجيش الاتحادى، ويتكون من أربعائة وتسعين ألفاً من الجنود وصف الضباط والضباط، ويطبق على الشباب نظام التجنيد الإيجابى ومدته خمسة عشر شهراً، على أن القانون الأساسى ينص على عدم إجبار أى شخص على أداء الخدمة العسكرية ضد ضميره، والدولة ملزمة بإعفاء الممتنع عن الخدمة العسكرية فى السلم بشرط أن يقوم بعمل آخر فى المنشآت الاجتماعية المختلفة.

ولا أستطيع زيارة بون دون زيارة بيت الفنان الرائع النغمات (بيتهوفن) والذى استطاع أن يهزم المرض ويتحمل كل أوجاعه ليخرج لنا أجمل وأعذب الألحان، البيت يقع فى قلب العاصمة وهو صغير به حديقة صغيرة أيضاً، ويتكون من ثلاثة أدوار، يوجد

بقاعاته مجموعة من آلات البيان والكمان وفي الدور الثالث دلفت إلى حجرة صغيرة جداً، قالت لى مرافقتى إنها التى شهدت ميلاد فناننا (سنة ١٧٧٠م) وأمام الحجرة وضعت صورة الجنازة التى اشترك فيها اثنان وعشرون ألف مشيع (سنة ١٨٢٧م)، وعجبت لهذه الحياة. هذا الفنان الكبير يولد فى هذه الحجرة الضيقة ثم تتسع أمامه الشهرة فيصل بنغمه ومجهوده إلى كل بقاع العالم.
إنها سنة الخالدين.

ولا شك أن بيتهوفن يعتبر علامة بارزة فى تاريخ الموسيقى الغربية. ولد عام ١٧٧٠م فى بون من أم طيبة وأب عرييد يعب من الخمر ليل نهار، واكتشف الأب موهبة ابنه مبكراً فعمل على تنميتها ورعايتها من أجل الحصول على مال وفير يحقق له مزيداً من كئوس الخمر لينتشى، وكان صارماً فى تدريب ابنه لتأكيد موهبته، وتحمل الطفل قسوة والده ومدربيه من أجل الفن الذى أحبه واستطاعت أنامله الرقيقة أن تخرج أحياناً طيبة حلوة من البيانو، وكان كثير السؤال عن الموسيقى والآلات والتأليف الموسيقى، ودفعه نهمه إلى قراءة كتاب «البيانو المهدب» الذى كتبه الفنان (باخ) حتى يعرف كل شىء عنه، وفى سن العاشرة قدم لأحد أساتذته قطعة موسيقية من تأليفه فُسّر الأستاذ وقال له: لكنك صغير ولا تستطيع عزفها. فرد الطفل الموهوب: حسناً سأعزفها إذن عندما أكبر..

التحق بيتهوفن في سن الرابعة عشرة ببلاط الحاكم ليعمل عازفًا للبيانو، مصاحبًا للأصوات الغنائية ولم يقتنع بعمله كمجرد عازف في الفرقة فتراهن مع زملائه على قدرته على إرباك رئيس المغنين في إحدى الحفلات الأسبوعية المهمة التي يشهدها الحاكم، وبدأ الحفل فأخذ يلعب على البيانو في هدوء ثم بدأ يحاكي النوت الأصلية التي أمامه بنوت من تأليفه دون أن يخرج على اللحن الأساسي، وفعلا ارتبك رئيس المغنين وثار على بيتهوفن وطلب طرده من الحفل لولا تدخل الحاكم وطلبه من الفنان الصغير التخلص من شقاوة الصبيان هذه.



بيتهوفن ملك النغم الفنان الذي

أبدع ألحاناً لم يسمعها. عاش من

سنة ١٧٧٠ إلى سنة ١٨٢٧

ومن أجل المزيد من المعرفة الموسيقية سافر (بيتهوفن) إلى فينا للدراسة على يد (موتسارت) المثل الأعلى له وأشهر فنان موسيقى وقتذاك، وطلب منه (موتسارت) اللعب على البيانو. فاضطربت أنامله في البداية لكن سرعان ما استعاد ثقته بنفسه

وعزف جزءاً من مسرحية الأخير (دون جوان) فكان بارعاً مما دفع (موتسارت) للقول لأصدقائه.. تنبهوا إلى هذا الغلام فسيكون له شأن وسيذكره العالم. ووعده بأن يدربه ويتبنى موهبته، ويأتي خطاب إلى بيتهوفن يحمل أخباراً سيئة عن صحة أمه فاضطر إلى العودة إلى بون ليرأها، وقد كان محبباً لها باراً بها، وماتت بعد أن رآها وألقى عليها نظرة الوداع، وبموت أمه ازدادت مسؤولياته وأصبح العائل الوحيد للأسرة حتى والده السكير.. ومن حسن الحظ أن تعرف على عائلة «فون بروننج» الأرستقراطية وعمل مدرساً للموسيقى لأفرادها كما اهتمت به سيدة الأسرة، واعتبرته فرداً من أفرادها، مما ساعده على تقوية شخصيته وتهذيب عاداته وتنقيف نفسه بالاطلاع على مؤلفات شاعر اليونان القديم (هوميروس) و (بلوتارك) وغيرهما.

وظل الحظ مبتسماً له فتعرف أيضاً على الكونت (فالدشتين) الذي عرف الضائقة المالية التي يعاني منها فأغرقه بالمال، وشجعه على السفر مرة ثانية إلى فينا للدراسة على يد عبقرى الموسيقى هايدن، وفي سنة ١٧٩٢ سافر إلى فينا وحالفه الحظ في هذه المرة فذاع صيته وظل يدرس ويدرس الموسيقى ويعزف في الحفلات العامة، واستطاع بيتهوفن أن يقوم بثورة هائلة في الموسيقى تعادل كما يقول المؤرخون ثورة (فولتير) في الفكر إذ ثار على القوالب الموسيقية القديمة وابتدع قوالب جديدة، بل خرج على قواعد

التأليف السيمفوني فكتب السيمفونية السادسة الريفية في خمس حركات لا أربع كالمعتاد، كما أدخل الكورال لأول مرة في سيمفونيته التاسعة الرائعة، وحقق (بيتهوفن) للفنان احترامه الكامل الذي يتساوى مع احترام الحاكم، بعد أن كان الفنان مجرد موظف في القصر يعنى إذا أمره الحاكم ويصمت إذا أراد ذلك..

وذات ليلة سمع بيتهوفن أصواتاً غريبة مختلفة الإيقاعات تطن في أذنه اليسرى فظنها صوت هطول الأمطار، واتجه إلى النافذة ليراها لكنه فوجئ بأن الطبيعة رائعة وهادئة، ولم يصدق نفسه فنادى على الخادم وشرح له حالته فتعجب الأخير، وأيقن بيتهوفن أن هذه الأصوات تصدر عنه هو واعتبرها حالة طارئة نتيجة إرهاق العمل، وحاول أن يتناساها، ولم تمض أيام قليلة حتى عادت الأصوات تطن في أذنه مما أزعجه، فذهب إلى الطبيب الذى طمأنه وأكد له أن الحالة لا تخرج عن زكام شديد أثر في طبلة الأذن، وأنه إذا قطر في أذنه بضع نقط من زيت اللوز فإنه سيسفى سريعاً بإذن الله. ونفذ صاحبنا نصائح طبيبه دون فائدة، وانتقلت الأصوات إلى أذنه اليمنى أيضاً مما زاد من خوفه، وهو الفنان الشاب الذى يبلغ الثامنة والعشرين ربيعاً من عمره، والذى يهتم بفنه ويعتمد على حاسة السمع حتى يسمع ألحانه قبل أن يقدمها للجمهور، وحاول العلاج بالتردد على أكثر من طبيب، ولكن هيهات له أن يستعيد حاسة السمع فقد أبى قدره أن يعيدها

إليه، وعلى الرغم من ذلك لم يركن إلى الراحة أو يعتمد عن العمل بسبب عاهته، بل ظل يعمل ويؤلف حتى قام بشورته الموسيقية، وكتب اسمه بحروف من نور في تاريخ الفن، وترجم آلامه وأفراحه وآماله إلى أعمال موسيقية كالسيمفونية الخامسة القدرية التي تعبر عن الصراع بين الإنسان والقدر، وكانت طريقة بيتهوفن عندما يعتمز التأليف هي الخروج إلى الحقول والمروج بين أحضان الطبيعة الجميلة لساعات طويلة ومعه كراسية يسجل فيها انطباعاته ويفضئ إليها بإحساساته ثم يحفظها ليعود إليها وقت التأليف يأخذ منها ما يراه ملائماً لما يكتب، وتتلخص أهم أعماله فيما يلي: تسع سيمفونيات.. ٣٢ سوناتة.. خمس كونشرتو للبيانو.. كونشرتو واحد للفيولينة.. ست عشرة رباعية.. أربع افتتاحيات مستقلة.. أوبرا واحدة.. قداس واحد.

وشرع بيتهوفن في تأليف سيمفونيته العاشرة لكن صحته لم تساعده، فاتجه إلى تأليف الرباعيات وهي آخر أعماله، وفي آخر أيامه عانى كثيراً من المرض وسوء معاملة ابن أخيه له على الرغم من حبه الشديد له، ومع ذلك كتب (بيتهوفن) وصيته في آخر عام ١٨٢٦ تاركاً كل ما يملك لابن أخيه، وبعد كتابة الوصية نظر حوله قائلاً:

«صفقوا صفقوا يا رفاق فقد انتهت المهزلة»

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر مارس ١٨٢٧ أسلم صاحبنا الروح، وشهدت فينا صباح اليوم الثلاثين من نفس الشهر الموكب المهيب للجنائز التي اشترك فيها اثنان وعشرون ألف شخص، وأغلقت المدارس وتعطلت المصالح وهب الشعب يودع فنانه الكبير بيتهوفن.

وأتأمل الحجره الصغيره جداً التي ولد فيها عبقرى النغم، والتي لا أستطيع أن أقف فيها رافع الرأس من شدة انخفاضها، وأتعجب لهذه الحياة. فقد ولد بيتهوفن في هذه الحجره الضيقه، وعاش في هذا البيت ثلاث سنوات، ثم فتحت أمامه أبواب القصور بعد ذلك نتيجة موهبته واحترامه لفننه وانتصاره على عاهته وعشقه لعمله، وشعرت أنى أقف في مكان جليل يستحق الاحترام وتحركت ببطء إلى خارجه..

وفي بون يزورون بيت بيتهوفن ويستمعون إلى موسيقاه الشجية، ونغماته الرائعة، ويلتفون حول تمثاله الضخم المقام في أحد الميادين الهامة، تكريماً للفنان الذى أعطى الدنيا أكثر مما أخذ منها.

(٤)

تركت العاصمة الهادئة بون لأقوم بزيارة مدينة قريبة منها على بعد ثلث ساعة بالقطار الذى يقطع حوالى خمسة وثلاثين كيلومتراً

إليها.. إنها مدينة كولونيا الصاخبة بسياحتها، وأبنيتها العالية ومبنى الإذاعة الجديد المرتفع إلى خمس وثلاثين طابقاً، والذي يبت أربعمائة ساعات ونصف الساعة باللغة العربية يوماً موجهة إلى خارج ألمانيا، الكنائس المنتشرة في كل مكان، وعلى البعد ألمع أبراج أكبر كاتدرائية في ألمانيا وهي كاتدرائية كولونيا الشهيرة التي أقيمت سنة ١٨٨٠ ميلادية، والتي تشغل مساحة كبيرة وذات ارتفاع شاهق يذكرني بكنيسة القديس بطرس في الفاتيكان، وداخل الكنيسة كان البعض يصلي أمام أحد مذابحها الكثيرة، فمنعنا أحد القساوسة من الاقتراب من هذا الجانب بالذات حتى لا نثير الضوضاء ونشغل المصلين أو نعطلهم، أما خارج الكنيسة فهناك متاجر عديدة لبيع الهدايا التذكارية كما وقف بعض الشباب في حلقة دائرية وقد اشتبكت أيديهم وعلقوا على صدورهم لافتات احتجاج على إفراط زملائهم في تناول الخمر، وهذه هي طريقة الاحتجاج في ألمانيا، الوقوف في صمت في الأماكن المزدهمة وتعليق لافتات مكتوب عليها سبب الاحتجاج، والطريف أنه على بعد أمتار قليلة يوجد مجموعات من الشباب يرقص ويغنى ويجري بالقبأب العجل «الباتيناچ» أو يجلس على الأرض يرتشف زجاجات الخمر، وهكذا ناس تضلي داخل الكنيسة وآخرون يلهون بجانبها ومجموعة تحتج في صمت، وبجانب هذه الكاتدرائية الرائعة توجد مجموعة من الفنادق والمطاعم القديمة منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر، وهي تقليدية بمعنى الكلمة تعطيك

انطباعات تاريخية، وهي أيضاً مرتفعة الأسعار جداً، وعلى العموم فإن ألمانيا الغربية مشهورة بغلاتها الفاحش وارتفاع أسعارها بشكل غير منطقي، وأبسط مثل على ذلك أنني أقيم في بون في فندق صغير يدعى «بارك» وقد طلبت من مشرفة الدور أن تغسل ملابسى الداخلية مع قميص واحد فقط، وبعد أن تم ذلك ذهلت عندما طلبت منى دفع مبلغ ثلاثة وستين ماركاً - المارك يساوى ثلاثين قرشاً تقريباً وقتها - أى ما يعادل تسعة عشرة جنيهاً، لا تنزعج فهذه حقيقة، والأسعار هنا من نار فعلاً، لا بالنسبة لنا نحن المصريين بل إن هناك أخاً عربياً سعودياً كان يشكو أيضاً ارتفاع الأسعار.

وبعد زيارة مبنى الإذاعة وكاتدرائية كولونيا الشهيرة نصحتنى مرافقتى أن تزور معاً مركز الفنون بالمدينة وهو من معالمها الرئيسية أيضاً، وكان الوقت عصرًا، أى أنه ما زال مبكرًا لأن الشمس في الصيف تشرق في الخامسة صباحًا وتغرب في العاشرة مساءً، وهذه ميزة طبيعية لا توجد عندنا في مصر، مع أننا بلاد الشمس المشرقة دائمًا، والإضاءة في ألمانيا في الصيف تبدأ في الشوارع بخاصة في تمام العاشرة مساءً.

دلفنا إلى داخل مركز الفنون بعد شراء تذاكر الدخول، ورسم الدخول للفرد ثمانية ماركات، وبدأت أجول في القاعات العديدة للمركز، إنه يحوى أعمالاً فنية تشكيلية رسومات وتمائيل

وتكوينات من كل دول أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، شارك في المعرض فنانون كبار عالميون مثل (بابلو بيكاسو) وسلفادور والى وغيرهما، بجانب مجموعة من الفنانين الشبان.. وبعد جولة قصيرة تأكدت من صحة المثل الشائع المقلوب، الفنون جنون.. ترى ماذا تعنى لوحة كبيرة عليها لون واحد كالأزرق أو الأحمر فقط ودون أى حركة غير ذلك؟ أو ماذا تعنى لوحة مليئة بالشخبطة واللخبطة بالألوان وكأن الألوان صبت على اللوحة دون وعى صاحبها. ثم أرى أمامى لوحة مكتوباً عليها منصة (روبرت) واللوحة تثير القرف في نفس الإنسان، مجرد منضدة عليها بقايا رماد السجائر وعلب البيرة الفارغة وكسرة من الخبز، وهى ليست لوحة مرسومة حتى نقول إنه فن واقعى وإنما لوحة عليها فعلاً هذه البقايا استخدم صانعها - ولا أقول فنانها - الصمغ واللصق حتى يشبهها لنا، وتمثال آخر يبرز الأنف بحيث يكون طويلاً جداً مثل المسطرة، ومجموعة من اللوحات عبارة عن ثقوب مختلفة لا تجمعها فكرة معينة، ثم حجرة مغلقة أنظر من بابها فأجد تمثالاً لرجل ميت، وحجرة أخرى تفنن صاحبها في جعل الدود والحشرات تأكل تمثالين لرجلين ماتا منذ مدة طويلة، الجسد متكامل والوجه غير موجود وداخله سمك يجرى في الماء فتحسبه حشرات تأكل الجسد لتبليه، وهذه التماثيل تزيد شعور الإنسان بالقرف والضجر. ماذا يهدف الفنان من ذلك؟ ولماذا أتعب نفسه ليقدم لنا عملاً يثير قرفنا ولوعتنا وحزننا على نهايتنا المحتومة؟

يبدو أن هذا الفن، إذا جاز لنا أن نسميه كذلك، إنما هو مرض من أمراض الحضارة الحديثة، فالدول التي وصلت إلى قمة الحضارة والتكنولوجيا تبحث عن شيء جديد فلا تجد للأسف إلا في هذه السخافات والمعاني الموجهة، وهذا أيضاً يندرج على الجنس، ففي هذا المعرض الضخم لوحات كثيرة جنسية بعضها جميل جذاب، ولكن كثيرها شاذ قبيح يثير الاشمئزاز، ولا اعتراض على تناول الجنس في المعرض، لكن الاعتراض على تناوله بطريقة مبتذلة حيوانية سخيفة، والجنس عموماً في ألمانيا يدرس في المدارس الإعدادية أي عندما يصل التلاميذ من الجنسين إلى الثانية عشرة تقريباً من أعمارهم، وهو سن بداية التطور الجنسي عندهم، والدراسة تكون علمية واضحة، فلاحياء في العلم، وهذا يفيدهم بلا شك في حياتهم العامة فلا يبحثون عن معرفة حقائق الجنس في الكتب المبتذلة الرخيصة والعلاقات الممنوعة، كما يفعل شبابنا، وحبذا لو بدأنا في مصر تدريس الجنس علمياً في المدارس سيكون مفيداً جداً في نتيجته.

غير أن المعرض لا يحوى اللامعقول والفن الحزين المقبض وحسب، وإنما هناك لوحات وتمائيل مشرقة بالأمل، ومعبرة عن معانٍ وقيم إنسانية رائعة، فهناك تكوينات فنية من الحديد تثبت قدرة الإنسان على تطويعه وخلق مناظر جمالية منه، كذلك توجد تماثيل تحاكي الطبيعة أبدع فنانها فبعث فينا الإعجاب به لدقة

تعبيره في التمثال الذي يضحك أو الأم التي تقبل ابنها أو العامل بلباس العمل الزرقاء المفتول العضلات أو الشاب الذي يتطلع إلى المستقبل وهكذا، كما توجد لوحات لفن اللامعقول ولكنك تستطيع أن تفهم منهم شيئاً في النهاية فهذه تعبر عن الأنوثة، وتلك تعبر عن ويلات الحرب وغيرها، وهناك أيضاً لوحات جنسية جميلة تعبر عن جمال الطبيعة الإنسانية مبتعدة عن الابتذال عامة، وشدتى مجموعة من اللوحات عن القديس أنطون وقد أبدع فنانها (دوروثيا تانتج) في توضيح الإغراءات النسوية التي انتصر عليها، فشكل مجموعات من النساء حوله بطريقة جميلة مبهمة رائعة التعبير، وكيف انتصر على كل هذا؟ كما توجد مجموعة من اللوحات عن الفنان (فان جوخ) بريشة الفنان الإنجليزي (فرانسيس باكون).

وقاعات العرض عديدة وتحتاج إذا أردت مشاهدة كل مقتنياتها إلى يوم كامل على الأقل، وهناك وسط هذه القاعات مجموعة أسرة متلاصقة يرتاح عليها الزوار، وتجذ الكثير يفردون أجسامهم عليها نساء ورجالا والبعض يغط في نوم عميق من شدة التعب بعد اللف والدوران حول اللوحات والتماثيل، كذلك توجد كافتيريا تقدم السندوتشات والمشروبات للزائرين وهناك قاعة خاصة للعرض السينمائي تعرض أفلاماً عن تاريخ الفنون ومدارسها المختلفة، والعرض مستمر طوال النهار.

ومن الأعمال الفنية التي شدتني أيضًا في هذا المعرض لوحات كبيرة الحجم بها عمل شاق فعلا، رسومات كثيرة في اللوحات الكبيرة تعبر عن أشكال إنسانية وحيوانية مختلفة، ألوانها متألقة جدًا كالموسيقى الهارموني وهي تعكس فكرة معينة عن الوجود، وتم عن جهد وقدرة للفنان مبدعها، كما أن هناك تشكيلات لونية مبهجة صفراء وخضراء وحمراء وزرقاء لا تعطى معنى معينًا وإنما تعطى إحساسًا بالبهجة والسعادة، وهذا هدف من أهداف الفن بالطبع.

وأترك اللوحات والتماثيل لأنظر إلى زوار المعرض إنهم معرض خاص وحدهم، جاءوا من كل بقاع أوروبا، البعض منهم ينظر باهتمام بالغ والبعض الآخر يهتم بفتاته التي معه شباب وأطفال وشيوخ تجمعهم هواية معينة هي حب الفن، وطبيعي أن يهتم كل منهم بمدرسة معينة كالفن الواقعي المتمثل في التماثيل واللوحات التي تصور حياة الإنسان وانفعالاته المختلفة، أو فن السيريالزم - وهو الفن فوق الواقعي - غير ذلك، كرنفال كبير يشكل معرضًا آخر هو الشورت الساخن - وهو ساخن عندنا في مصر فحسب أما هنا في ألمانيا فهو بارد جدًا - المكسي والميدي والعارى، الشعر الطويل ذو التسريحات المختلفة، والشعر القصير جدًا القريب من شعر الرجال الزيرو، الألوان الهادئة والفاقة، حتى الرجال هنا يشاركون في هذا الكرنفال، البعض يخلق شاربه، البعض الآخر

يترك جزءاً صغيراً أو كبيراً منه، اللحية الطويلة والقصيرة والمتصلة بالشارب والمبتعدة عنه، وهكذا نجد معرّضاً آخر يثير الإعجاب ويشد الأنظار إنه الإنسان في كل مكان المحب للحرية المنطلق دائماً لما يراه صحيحاً ومحقق ذاته، وأنت تنظر ولا تستطيع أن تتكلم أو تناقش في هذه المسائل الخاصة، فليست هذه مذاهب فلسفية أو نظريات اجتماعية وإنما هي: واحد شاييل ذقته وانت مالك..

(٥)

بعد زيارة بون وكولون التي تجاورها طرت إلى هامبورج التي تبعد عن العاصمة بحوالى خمسمائة كيلو متر تقطعها الطائرة في خمس وأربعين دقيقة، ومدينة هامبورج هي إحدى الولايات العشر الألمانية الهامة تعتبر ثانياً ميناء بحرى في أوروبا بعد ميناء نوتردام في هولندا، وعن طريق مينائها تستقبل ألمانيا ٨٠٪ من وارداتها، وعدد السكان حوالى مليونين منهم ستون ألف مليونير تقريباً، وتشتهر هامبورج بصناعة السفن يحكم موقعها كذلك تتمتع بوجود دار كبيرة للأوبرا تعرض فيها يومياً أوبرات عالمية مختلفة.

دعاني صديقى الألماني الجنسية والأسىوى الميلاد مع زوجته الألمانية إلى مشاهدة عرض أوبرا (ابن كارلوس) للفنان الإيطالى (فيردى) وسألنى هل أحضرت معك بذلة سوداء؟ قلت: لا. قال:

على أى حال بذلتك هذه شيك، المهم أن يكون الزى رسمياً أى بذلة كاملة ورباط العنق مع قميص أبيض.

وذهبنا إلى الأوبرا فى الموعد المحدد وسألتنى سوسنة زوجته هل تعرف اللغة الإيطالية؟ قلت: لا.. قالت إذن أشرح لك قصة الأوبرا هذه حتى تحاول أن تفهمها أثناء العرض.. وبسرعة عرفتنى أن (الملك كارلوس) أحب فتاة جميلة ومن سوء حظها أن وقع ابنه فى هوى هذه الفتاة وكانت النتيجة مأساوية للملك والابن، فى تمام الساعة السابعة أطفئت أنوار القاعة وبدأت الموسيقى العزف ثم فتح الستار عن الأوبرا، لم أفهم ما يقوله المغنون ولكنى حاولت تطبيق ما شرحته لى زوجة صديقى على ما أراه، وفعلاً نجحت فى الإحساس بالغناء والمناظر الجميلة الرائعة والأداء الفائق، والتصفيق هنا له موعد محدد بعد أن ينتهى مشهد كامل، لا وسط الأداء حتى لا يعطل إنفعال المطرب ويضيع لذة تكامل العمل الفنى، ثم أسدل الستار وأضيئت الأنوار وتركنا مقاعدنا للاستراحة، سألتى صديقى هل فهمت شيئاً؟؟ قلت حقيقة فهمت لأن زوجتك تفضلت وشرحت لى القصة فى البداية. قال أما أنا فساكون صريحاً معك، إننى لم أفهم شيئاً ولكنى أحترم رغبة زوجتى فى مشاهدة الأوبرا حتى لاتقول عنى حمار جاء من الشرق من آسيا.. تصور يا أخى إن ثمن التذكرة ٧٨ ماركًا (أى ما يعادل ٢٤ جنيها).

إن رواد الأوبرا لو دقت النظر فيهم فستجدهم كلهم تقريبا مليونيرات وإلا كيف يدفع الواحد ثمن التذكرة المرتفع هذا؟

وقد شدتني الأوبرا بمبانيها الرائعة وشرفاتها المتعددة المرتفعة وهدونها العميق وأحترام الناس للفن الراقى.. وتذكرت الأوبرا المصرية السابقة التي تحول مكانها القديم الآن إلى موقف للسيارات وحزنت في صمت.

والألمان مثقفون جداً يحبون التاريخ ويتطلعون إلى حضارات الإنسان المختلفة، وليس أدل على ذلك من الطوابير الطويلة التي يقفها الجميع في انتظار دخول معرض توت عنخ آمون في ميدان بان هوف بهامبورج، إن أكثر من خمسمائة شخص ينتظرون دورهم في هدوء تحت المطر الشديد حتى يفوزوا بمشاهدة آثار ملك مصر الصغير، الراحل منذ آلاف السنين وإن طوابير الجمعيات التعاونية في مصر تعتبر قصيرة جداً بالنسبة لهذه الطوابير الباحثة عن الثقافة، قال لي مدير المتحف إن زواره كل عام في هامبورج فقط يصل عددهم إلى ستمائة ألف زائر، والزوار ليسوا شباباً فقط بل من كل الأعمار حتى الأطفال والشيوخ، إنه فخر لمصر بلا شك.

• لا أستطيع أن أتحدث عن (هامبورج) دون الإشارة إلى (سانت باولي) أو سوق الجنس، فهامبورج هي عاصمة الجنس في أوروبا والعالم أيضاً.... وقد ساعدها موقعها كبلد ساحلي يؤمه

أجانب كثيرين من كل العالم على ذلك، وحتى الجنس هو منطقة سانت باولي للأسف، فالقديسة باولي وإن كنت لا أعرفها، لا ترضى بهذا الذي يحدث تحت اسمها ليلاً ونهاراً.

شجعتني صديقي على زيارة سوق الجنس هذه ونصحني بالأقع في الإغراءات العديدة التي سأقابلها، وذهبتنا وكان العجب العجاب، وما لم يخطر على بال أي إنسان أو يتوقعه، فتيات شبه عاريات يرتدين المايو البكيني أو الأخطر من البكيني ويقفن بالعشرات في صالة كبيرة يعرضن أنفسهن على من يريد، فتيات جميلات حقاً، القوام المشوق، الشعر الأصفر الناعم، والعيون الخضراء أو الزرق، والملامح الأوربية الدقيقة الجميلة، والأجسام الناصعة البياض مثل القشدة، الصدور العارية البضة.. فتيات في عمر الزهور، جماهن متدفق، يرحبن بك وبين معك وبكل الزوار وبمختلف اللغات: أهلا هل تريد أن تتمتع بي، هيا في الحجرات المخصصة لذلك في الطابق الأعلى.

ما هو الثمن؟ خمسون ماركاً ما رأيك هيا بنا.

وتترك الواحدة لتأتي إليك أخريات تحاولن إغراءك بأي طريقة لتصعد معهن.. وقد عرفت أن الفريسة أو الباحث عن اللذة بمجرد أن يصعد معها فإنه لا بد وأن يدفع مثل المبلغ الذي اتفقت معه عليه أربع مرات، وإلا ضرب وسرق ونهب، والشرطة

لن تفعل له شيئاً ولن تحميه لأن أحداً لم يضربه على يده ليدخل هذا المكان الموبوء، والذي يعمل به مجرمون مدربون.

سألني صديقي ما هو انطباعك؟

هل تريد أن تذهب مع إحداهن؟

قلت.. حقيقة إن الفتيات جميلات، بل يمكن أن يفزن في مسابقات الجمال المختلفة، ولكني أرى فيهن عكس ذلك، فقد وقفن وتحادثن معي وكنت أنا الذي أشعر بالحجل، وتحول جماهن في نظري إلى قبح لا حد له، لا أستطيع أن أصفه.

ثم قال: هيا بنا لترى مكاناً آخر أرخص من هذا، على الأقل لأنك صحفى وكاتب ولا بد أن تأخذ فكرة عن هامبورج مادمت قد زرتها.

كان المكان الآخر شارعاً صغيراً مغلقاً من الأمام والخلف وعلى جانبيه فاترينات لعرض الفتيات فيها، تماماً كمحلات البيع والمتاجر، فالفتاة ترتدى نفس المايوه البكيني، وتجلس أمامك من وراء الزجاج تضع ساقها اليمنى على اليسرى أو العكس، أو تفرد جسمها على المقعد الوثير، المهم أنها تعرض بضاعتها الرائجة أى جسمها بكل تفاصيله ومفاته، وتكاد تكون عارية تماماً إلا من شيء يشبه ورقة شجر التوت، والناس من كل بقاع العالم يشون لمشاهدة المعروضات في الفترينات، معروضات حية جميلة ولكنها في

الواقع باهتة قميثة مقززة منفرة، وسأل صديقي إحداهن عن الثمن؟ ففتحت الباب الزجاج وقالت أربعون ماركاً.. وأحسست وأنا أرى صديقي يتحدث معها وكأنني في حديقة الحيوان أشاهد مجموعة من القروذ أو الغزلان في أقفاص متجاورة والناس متجمعة لمشاهدة العرض المجاني، والطريف أن بعض السيدات يسرن في هذا الشارع مع الرجال لمشاهدة الفتيات المعروضات لبيع اللذة، وهذا ما يسبب ضيقاً شديداً هن.

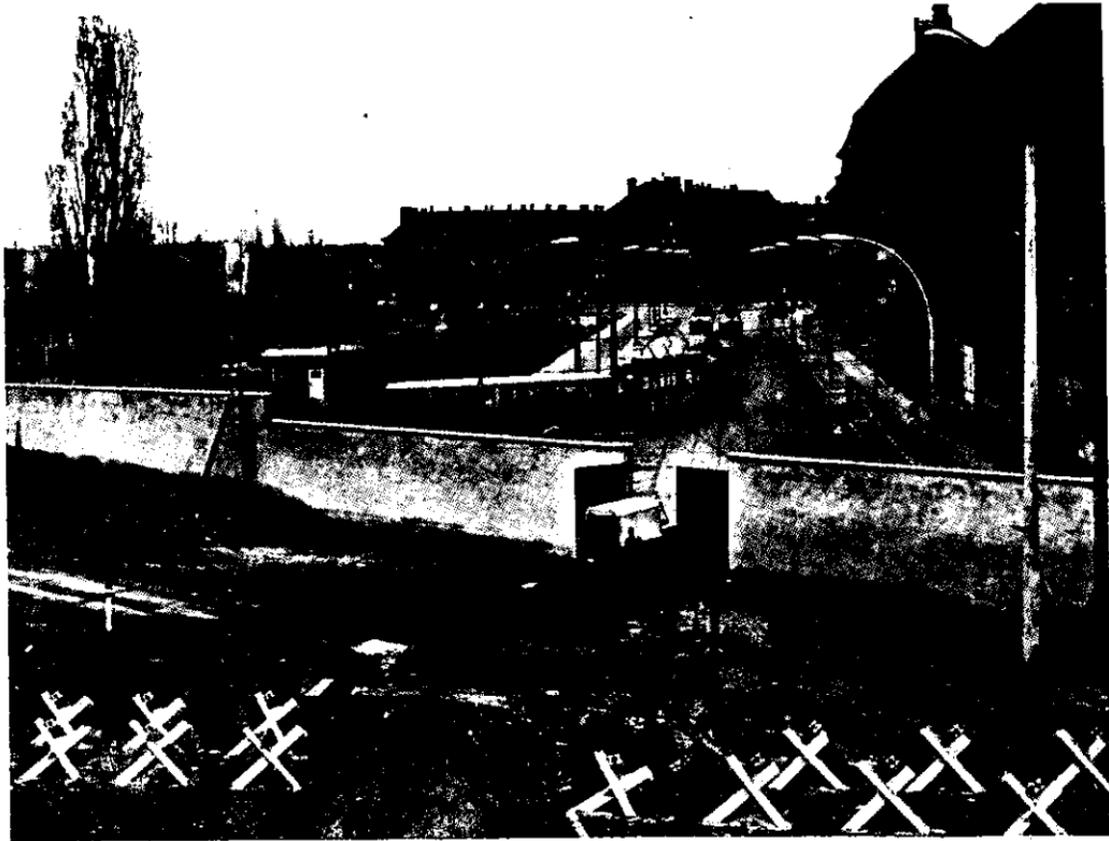
أين أنت يا سيد فرويد من هذا الجنس المكشوف الفاضح، لقد أبرزت الأهمية الكبرى للجنس في حياة الإنسان ولكنك إذا جئت معي هنا الآن فستشاركني القرف والاشمئزاز.

إن الجنس ضرورة، وجزء هام من حياة الإنسان، وهو يضىف عليها لوناً مستحباً، كما يقول الفيلسوف نيتشه، لكن جمال الجنس في غموضه وحيائه واحترامه لكرامة الإنسان.

وغير هذه المعروضات الحية العارية، هناك فتيات يقفن على الأرصفة والنواصي يرتدين ملابسهن ولكنهن يعرضن عليك أنفسهن قائلات.. هل تريد أن تتمتع معي؟ ويتخاطفنك من الشارع ولكنهن لن يستطعن إجبارك على الذهاب معهن، فالمشكلة تبدأ إذا ذهبت معهن بإرادتك، فهنا يبدأ في ابتزازك وأخذ أكبر مبلغ منك ولا يعطينك من اللذة إلا القليل.

وهناك متاجر أخرى للجنس تباع فيها مجلات وأفلام الجنس، كما يمكن لك أن تشاهد أفلاماً لعملية جنسية يستغرق الواحد منها ثلاث دقائق بمبلغ مارك واحد أو سبعة، كما توجد كافتيريات وبارات تستطيع أن تشرب البيرة أو تتناول العشاء أو الغداء فيها وأنت تشاهد أفلاماً عديدة لعمليات جنسية يلعب المخرج فيها دوراً كبيراً معتمداً على الخدع السينمائية وغيرها، وطبيعي أن يكون الثمن مرتفعاً جداً، سواء للأفلام والمجلات، أو لتناول الطعام ومشاهدة الأفلام، فسعر الطعام سيكون الضعف أو ثلاثة أضعاف، كما إن الطعام لن يكون بالشفاء والهناء، وإنما الأفلام ستؤثر على المعدة وتسبب لها الاضطراب والغثيان.. وأعجب من ذلك أن تباع هذه المتاجر أعضاء جنسية للشباب من البلاستيك والجلد، فهناك مثلاً عروسة بلاستيك يستطيع الشاب أن يشتريها ليمارس الجنس معها في بيته، وهكذا بالنسبة للمرأة، إنهم يساعدون الشباب حتى على ممارسة الجنس الوهمي.

على أنه من الضروري هنا الاعتراف بأن سوق الجنس في سانت باولي بهامبورج لا تعنى أن الشعب الألماني هكذا شعب بلا قيم، بل إن الشعب الألماني من أشد الشعوب تديناً وقسماً بالقيم الإنسانية وهو عندما يذهب من ولاياته المختلفة إلى هامبورج لزيارتها يفاجأ بالذى يحدث في سوق الجنس، تماماً كما يفاجأ الغريب، وهذا دليل على أن هامبورج لها وضع خاص،



الحدود بين برلين الغربية وفي الصورة العوائق التي تمنع أى فرد من العبور

ومع ذلك فأنا ألوم المسئولين فيها على هذا الذى يحدث كل يوم فى سانت باولى، فهم يعرفون كل ذلك، بل للأسف يحصلون على ضرائب باهظة من بائعة اللذة، فلماذا لا يبحثون عن طريقة أخرى تليق بالإنسان وكرامته واحترامه لنفسه؟

وقبل مغادرة هامبورج استرحت قليلاً فى أحد المطاعم القديمة التقليدية التى يفضلونها وسألت النادل أن يحضر لى أكلة الهامبورجر المعروفة ظناً منى أنه توليفة ألمانية هامبورجية، ولكن النادل ابتسم قائلاً... هذه الأكلة ليست من هنا وإنما الذى اخترعها هو المستر هامبورجر الأمريكى، وعلى أى حال أستطيع أن أقدمها إليك فنحن نظهها أيضاً.

قلت.. وما هى الأكلة الشعبية هنا إذن؟

هامبورج كما تعرف ثانى ميناء فى أوروبا، وبلد ساحلى عالمى ويمكنك تناول أنواع كثيرة من الأسماك المشوية أو المقلية. وأحضر لى بعد ذلك سمكاً مقلياً رائعاً وعليه لوز مقلى أيضاً، وكدت أكل أصابعى وراءه.

(٦)

كنت مهتماً خلال زيارتى لألمانيا الاتحادية بزيارة مدينة برلين، فهى مدينة ذات وضع عالمى خاص، وتمثل قمة الخلاف بين الغرب

والشرق، وتحكم الدول الكبيرة بالصغيرة، في اقتصادها ومبادئها بل ومستقبلها، فحتى عام ١٩٤٥ كانت برلين هي عاصمة ألمانيا الموحدة ثم تغير الوضع بعد ذلك.

الرحلة من هامبورج إلى برلين قصيرة بالطائرة حوالى نصف ساعة، ولكنها ومع قصرها كانت مرهقة لى فقد كان الطقس سيئاً، والمطر غزيراً والمطبات الهوائية كثيرة، كنت أستقل طائرة أمريكية، وذلك لأن شركة الطيران الألمانية الغربية «لوفتهانزا» لا تستطيع الطيران إلى برلين الغربية لأنها تمر فوق أراضى ألمانيا الديمقراطية (الشرقية) لذا هناك شركتين فقط تطيران إلى برلين الغربية هما بان أمريكا والطيران الإنجليزي.. كان الطقس مخيفاً وأخذت الطائرة تعلق وتهبط بنا كما المرجيحة، ومع كل حركة يزداد قلبى خوفاً ويغوص فى الأعماق، وبينما أنا فى هذه الحال المضطربة نظرت إلى أعلى مقعدى وإذا بى أجد رقمه ١٣ ف.. الله أكبر.. علشان كده الطائرة ترقص وتلعب الأكروبات.. وفكرت أن أنتقل إلى مقعد آخر حتى أبتعد عن هذا الرقم المشؤم، ولكنى لم أفعل، وتذكرت كيف كان عملاق الفكر أستاذنا عباس محمود العقاد يتحدى هذا التشاؤم.. فقد اختار رقماً لبيته ١٣ ووضع على مكتبه تمثالاً لهبومة.. وأكثر من ذلك كتب عن (ابن الرومى) الذى تشاءم من الكتابة عنه كثيرون.. الطائرة تتحرك بغلظة وأتشبث أكثر بمقعدى ثم إبتسم وأسأل نفسى ماذا يفيد هذا التثبيت بالمقعد

إذا هوت الطائرة كلها إلى الأعماق؟ وأغمضت عيني واصلت وبعد دقائق قليلة تحسن الطقس وذهبت المطبات إلى غير رجعة. وعاد الهدوء إلى نفسي وإلى كل الركاب. ومرت المضيئة الحسناء لتبلى رغباتنا. وطلبت علبة كوكاكولا وشربتها.. في صحتك أو كما يقول الألمان «بروست».

في مطار برلين كانت مفاجأة سعيدة لى أن تنتظرني مرافقة مصرية الأصل ألمانية الجنسية الآن هى السيدة ناهد نصر شيتنر زوجة أحد المهندسين الألمان، وهى أول مترجمة فورية من اللغة العربية إلى اللغة الألمانية والعكس، وهى صورة مشرفة للمرأة المصرية الناجحة، درست اللغة الألمانية فى المدارس الألمانية بالقاهرة منذ صغرها، وفى عام ١٩٧٢ تركت القاهرة وتزوجت بالمهندس الألماني وتعمل وتعيش فى برلين الغربية.

أهلاً وسهلاً.. مش برضه سيادتك الأستاذ.

قلت: نعم ولكنك مصرية.. فقالت سأكون مرافقتك فى هذه الرحلة عندك مانع؟

لا بالطبع.. إنها فرصة لتتحدث كثيراً عن ألمانيا ونغوص معاً إلى أعماق هذا المجتمع المتحضر.

سيارة التاكسى تقطع المسافة بسرعة من المطار إلى قلب برلين الغربية حيث الكنيسة الأثرية العملاقة والتي أصابتها نار وحرم

الحرب العالمية الثانية، وقد ترك المسئولون جزءًا من هذا الدمار والخراب في الكنيسة حتى يتذكر الجميع أهوال الحرب.. ثم وصلنا إلى الفندق الذى سأنزل فيه.. فندق (شفايتزر هوف).

هذه أول مرة أستطيع فيها حفظ اسم الفندق الذى أنزل فيه.. فمعظم الفنادق الألمانية لها أسماء غريبة فيها من حروف الشين والحاء الكثير الذى يصعب معه نطقه وبالتالي حفظه.. أما سبب سهولة اسم هذا الفندق فلأنه يحمل اسم عالم إنسان طبيب هو (ألبرت شفايتزر) الذى أجمل له حبًا وإعجابًا كبيرين.. فقد كان صبيًا ألمانيًا نشأ في أسرة الزاوية حيث تتاخم ألمانيا فرنسا، وكانت نية أبويه أن ينشأ نشأة دينية، وفعلاً استطاع ألبرت شفايتزر أن يحصل على الشهادة الجامعية في الإلهيات، كما أبدى نبوغًا في العزف على الأرغن، أكبر آلة موسيقية توجد في كل الكنائس، واستطاع أن يحصل على أرباح كثيرة من عزفه، وبجانب ذلك كان شفايتزر مؤلفًا في الفلسفة والأدب والاجتماع والدين.. ومع كل النجاح تساءل في نفسه ماذا يستطيع أن يفعل في سبيل خدمة الزوج الذين سحقهم الاستعمار؟

هل يرحل إلى أفريقيا ليبشرهم بالمسيحية ويعزف لهم الموسيقى؟

ولم يجد إجابة شافية لسؤاله ومن ثم فكر في أن يبدأ من جديد

في دراسة الطب حتى يستطيع خدمة الزوج ويعالج مرضاهم، ثم حزم حقائبه ورحل من ستراسبورج إلى باريس وهناك عاد تلميذاً وهو في الثالثة والثلاثين، وبعد أربع سنوات حصل على شهادة الطب، ورحل إلى أفريقيا الغربية حيث استقر في (لامبارنيه) في السنغال الفرنسية ومكث أربعين سنة هناك يعالج المرضى ويخفف عن المتعبين بالمجان، وأسس مستشفى لخدمة الزوج، وفي سنواته الأخيرة كان يقسم وقته بين عمله في أفريقية وأسفاره إلى أوروبا ولكنه رحل في عام ١٩٦٥ في مدينة لامبادنيه التي أحبها وقضى فيها أربعين سنة يعالج الزوج، فقد ضحى بكل شيء في سبيل الإنسان الإفريقي.

سألتني مرافقتي عما أود أن أراه في برلين الغربية قلت لها مبتسماً... الحقيقة أني أريد رؤية كل شيء، أريد أن أرى أعماق برلين ومعالمها.. وفي نفس الوقت أرجو أن تتاح لي فرصة زيارة برلين الشرقية فهي في رأيي جزء متم لبرلين الغربية.. وحتى تكون الصورة كاملة واضحة أمامي.

كانت أول زيارة لي إلى المتحف المصري في برلين، وهو من معالم المدينة وشاهد كبير على حضارة مصر، والملاحظة الأولى هي الإقبال الشديد للمواطنين الألمان على زيارة المتحف، طوابير طويلة منظمة تقف تحت وابل المطر محتمية بالمظلات الصغيرة حتى يأتي دورها في الزيارة، للدخول مجاناً ولكنك تستطيع أن تضع مبلغاً

من المال إذا أردت تبرعا ومساهمة في مكان مخصص بجوار بوابة الدخول، والمتحف يتكون من طابقين وقد وضعت فيه الآثار بدقة وعناية فائقة، شعرت كأن كل أثر صغير قطعة من الذهب أو الماس، فقد وضعت في مساحة كبيرة وأسقطت الأضواء عليها بطريقة فنية جميلة تساعد على إبراز جمالها وروعها، ورأيت مومياء مصرية يرجع تاريخها إلى خمسمائة سنة قبل الميلاد، ومازالت معالمها ولون شعرها كما هو، وفي الطابق الثاني وقفت أمام أهم أثر تعتر به برلين وهو تمثال رأس الملكة نفرتيتي.... وقفت مبهوراً مشدوهاً أمام جمالها وطريقة الاحتفاظ بها وعلى الرغم من مرور ألوف السنين إلا أن الرأس مازالت كما هي تعبر عن الجمال المصرى وقدرة إبداع الفنان القديم.. الشفتان حمراوان وكأنها صبغتنا الآن باللون الأحمر.. كل شيء كما هو ما عدا الأذن التي أصابها بعض العطب.... الناس تتدفق على المكان وتقف أمام رأس الملكة في احترام وإجلال شديدين من كل الأركان.. ترى هل كانت الملكة نفرتيتي (ومعنى اسمها الجميلة أتت) زوجة صاحب أكبر ثورة دينية في العهد القديم - إخناتون سنة ١٣٦٠ قبل الميلاد - تعرف أو تطمع في أن تعيش في ذكرى إنسان القرن العشرين وليس في مصر فقط بل وفي ألمانيا؟

والطريف أن مشاكل ومعارك فكرية وصحفية نشبت بين برلين الغربية وبرلين الشرقية من أجل الاحتفاظ برأس نفرتيتي ولكنها

الآن في المتحف المصرى ببرلين الغربية.

ولن تستطيع زيارة برلين الغربية دون قضاء سهرة ممتعة مع
فن الأوبرا والبالية، وستكون محظوظاً إذا استطعت الحصول على
مقعد واحد في إحدى دور الأوبرا فالألمان يعتبرون مشاهدة
الأوبرا والتمتع بفن البالية وزيارة المتاحف جزء هام من حياتهم
لا يقل عن الطعام والشراب، وتقول لغة الأرقام إن تسعة من بين
كل عشرة من الألمان قد زادا متحفاً، ويزورون الأوبرا كل
أسبوع على الأقل.. وتوجد في برلين فرق موسيقية ألمانية عظيمة
كما يوجد فيها واحدة من الفرق النادرة في فن الباليه في العالم،
وقد تمتعت حقاً بفن الباليه، إنه روعة في الأداء وإبداع للجسم
الإنسانى في التعبير ورشاقة تكلف صاحبها الكثير من الحرمان
حتى يصبح فناً للبالية بحق، هذا بجانب القصة الإنسانية التي
يعبر عنها العرض.

وفي اليوم التالى اقترحت مرافقتى على أن نزرور قبل تناول
طعام الغداء متجر (كادى فى) لأشترى ما أريده من هدايا
وبملابس ثم لمشاهدة طريقة بيع الطعام، وضحكت وهى تقول...
علشان نفسك تفتح على الأكل قبل الغداء... ووافقت وعرفت
بعد ذلك أهمية أن أرى الألمان وهم يبيعون ويتاعون الطعام،
النظافة الفائقة والعرض الشائق، إنه ليس مجرد بيع وشراء لكنه
فن رفيع، فن العرض المتألق، والألوان الزاهية للأطعمة المتباينة،

والطرق المختلفة لطهي الطعام مما يشير لعابك فتندفع للشراء،
والملاحظة المهمة أن الألمان لا يشترون إلا بقدر حاجتهم بالضبط،
لا كما نفعل نحن فنشتري كميات كثيرة ربما تكون نهاية رحلتها
سلة القمامة.. وقد شدتني أحواض عديدة مضيئة بها أسماك متنوعة
ولكنها ليست ملونة، فسألت لماذا يحتفظون بهذه الأسماك الحية في
الاحواض مع أنها ليست ملونة للزينة؟ وعرفت أنها للبيع.. -
كيف؟

تستطيع أن تختار السمكة التي تعجبك ومن أي نوع، ثعبان
مثلاً، أو بلطي أو بياض وهي حية فيصطادها البائع لك من
الحوض ويضربها ثم يزنها ويبيعها لك فتأخذها طازجة لتطهيها في
بيتك وتأكلها بالهناء والشفاء، وهناك سمك مطهى جاهز للبيع
بالطبع، بل إن الأطعمة المطهية الجاهزة تمثل ثمانين في المائة من
الأطعمة المعروضة للبيع.. وفي نهاية اليوم تعدم الأطعمة المطهية
التي لم تبع مهما غلا ثمنها، وهم يعتبرون ذلك نوعاً من الحفاظ
على صحة المواطنين وحياتهم، فلا تباع أطعمة اليوم المطهية غداً
بوضعها في الثلاجة بل تعدم تماماً.

(٧)

جاء موعد الزيارة المهمة المرتقبة، موعد زيارة برلين الشرقية،
ومع أن المسافة ليست بعيدة، بل مجرد عبور السور الطويل

والعريض الذى يقسم البلد الواحد إلى اثنين، ويفرق بين الشعب الواحد والأسرة الواحدة، أقول مع أن المسافة لا تتعدى الدقائق إلا أن إجراءات الأمن الشديدة وضرورة استخدام جواز السفر.. و.. وبجعلك تشعر أنك تدخل دولة أخرى مختلفة عن برلين الغربية تماماً.

أخذت مكانى فى الأتوبيس الخاص الذى يدخل برلين الشرقية، وهناك أكثر من زيارة كل يوم، واشترت تذكرة الركوب بعد أن فحص المحصل - وهو ألماني غربي - جواز السفر، وأعطاني رقماً معيناً أوصاني ألا أنساه حتى لا تحدث مشكلة، وعندما اكتمل عدد الركاب ترك المحصل الأتوبيس وودعنا قائلاً إن معكم زميلي السائق لأن النظام يقتضى أن يكون معكم سائق من برلين الغربية أما المرشد فسيكون من برلين الشرقية لأنها عاصمتهم بالطبع، أرجو لكم رحلة موفقة، وإذا أردتم أن تدفعوا بقشيشاً لأحد زميلي السائق أولى من الآخرين بذلك..

وتحرك الأتوبيس وبعد دقائق كنا على الحدود نخترق السور الكبير الذى أقيم فى ١٣ أغسطس سنة ١٩٦١ والذى يبلغ طوله حوالى مائة كيلومتر وعرضه كيلومتر واحد، وعلى السور كتب مواطنو ألمانيا الاتحادية (الغربية) بعض العبارات المعبرة عن شعورهم الحزين من وجوده مثل: «هذا السور يحمى معتقلات هتلر فى الشرق».. «نريد دولة ألمانية واحدة».. «حطموا هذا

السور».. «فكر في أخيك عبر هذا السور» وعلى الحدود وضعت ألمانيا الديمقراطية (الشرقية) موانع كثيرة حتى تمنع مواطنيها وشبابها من العبور إلى برلين الغربية، من هذه الموانع الأسلاك الشائكة، والكلاب الجائعة، والألغام الجاهزة للانفجار، والمسدسات الألكترونية التي تطلق الرصاص أتوماتيكياً على كل من يلمسها.. كل هذا حتى تحافظ ألمانيا الديمقراطية على نظامها واشتراكيته التي يرفضها شبابها، وقد أقامت السور لنفس السبب بعد أن وجدت آلاف الشباب يهاجر ويهرب منها إلى الغرب.

دلفنا عبر السور من بوابة خاصة ضيقة جداً تكاد السيارة أن تعبرها (بالعافية) ثم وقف الأتوبيس في فناء مخصص للوقوف، أمامه حبل عريض يحدد المكان، ويمنع العبور وجاء رجال الأمن الشرقيون ليعرفونا بالتعليقات والمحاذير الكثيرة من أجل التصريح بالدخول:

أولاً: ممنوع التصوير في برلين الشرقية إلا في الأماكن التي تحددها السلطات لذلك.

ثانياً: ممنوع حمل مجلات أو صحف أو كتب أو أفلام من برلين الغربية إلى الشرقية.

ثالثاً: ممنوع التجول الانفرادي بعيداً عن المجموعة، وهناك كافتيريا خاصة لقضاء بعض الوقت والشراء فيها بالمارك الألماني الغربي.

ممنوع.. ممنوع.. وجاء جندي لفحص السيارة جيداً، ثم تفحص الناس أيضاً والاطلاع على جواز السفر ثم النظر الدقيق إلى صورة كل شخص ومطابقتها عليه، وبعد كل هذه الإجراءات انتظرنا أكثر من نصف ساعة في المكان دون معرفة سبب ذلك، وأخيراً أفرج عنا وأعطيت للسائق إشارة التحرك ودخول برلين الشرقية..

الإحساس الأول الذي يخامرك لأول وهلة هو الفرق الشاسع بين الحركة والنشاط في برلين الغربية والهدوء الرتيب العجيب في برلين الشرقية، وربما كان هذا هو السبب الرئيسي لهروب الشباب إلى الغرب حيث الحركة والنشاط والكسب غير المحدود.

وتقول الإحصائيات إنه خلال عشرين سنة من إقامة السور الكبير الذي يفصل بين البلدين تمكن ١٨٥ ألفاً و٧٥٦ شخصاً من الهروب إلى ألمانيا الاتحادية الغربية، قتل منهم ما لا يقل عن ١٦٨ شخصاً أثناء محاولتهم الهرب، وفي أثناء زيارتي خلال عام ١٩٨١ حاول شاب يبلغ ثمانية عشر ربيعاً أن يهرب وقفز السور ولكنه أصيب بطلق نارى ومع ذلك لم يتراجع وعبر السور فتلقفته سلطات برلين الغربية وأوصلته إلى أحد المستشفيات لإجراء عملية جراحية عاجلة له.

قضيت في برلين الشرقية ساعتين ونصف الساعة شاهدت خلالها بعض المتاحف القديمة والحديثة ومبنى الجامعة، وهوائى مبنى

التليفزيون المرتفع جداً، والذي يمكنك أن تراه حتى وأنت في داخل برلين الغربية، ومعظم جولتي كانت داخل الأتوبيس أنظر من خلف الزجاج لأنه ممنوع على مغادرة الأتوبيس إلا في الأماكن التي تحددها السلطات وحسب..

والواقع أن حكاية تقسيم برلين وألمانيا مأساة أخرى من المآسى الإنسانية، فقد زرت قبل ذلك كوريا وشاهدت مأساة تقسيم البلد الواحد والشعب الواحد، وهذه مأساة شعب متحضر متقدم يملك أحدث وسائل التكنولوجيا ولكنه لا يملك مصيره ولا وحدته!!

ولكن كيف قسمت ألمانيا بهذا الشكل؟

أشعل هتلر شرارة الحرب العالمية الثانية في أول سبتمبر عام ١٩٣٩ بهجومه على بولندا، وانتصر جيشه في البداية على بولندا، والدنمارك، والنرويج، وهولندا، وبلجيكا، وفرنسا ويوغوسلافيا واليونان وتوغلت الجيوش الألمانية في الاتحاد السوفيتي حتى اقتربت من موسكو، كما توغلت في شمال أفريقيا حتى هددت قناة السويس، وأقام هتلر في البلاد المفتوحة نظام احتلال صارم ثارت ضده حركات المقاومة العديدة، وبعد ثلاث سنوات من قيام الحرب، أي في عام ١٩٤٢ بدأ في تطبيق الحل النهائي للمسألة اليهودية في رأيه وهو القضاء على اليهود، فجمعهم من كل ألمانيا والبلاد التي احتلها ووضعهم في معسكرات اعتقال، ثم أعدمهم

جميعاً في أفران بطريقة تتنافى مع أبسط المبادئ الإنسانية، ويقال إنه استخرج من جثثهم بعد ذلك أنواعاً من الصابون والورق والزراير إمعاناً في احتقارهم، ويقدر ضحايا هذا العمل الإجرامى بحوالى ستة ملايين يهودى.

وفي نفس العام الذى ارتكب فيه هتلر هذا العمل الإجرامى اللإنسانى بدأ نجمه فى الأفول، وبدأت أسطوره تهتز مع مرحلة الانتكاسات لألمانيا وحليفتيها إيطاليا واليابان فى جميع الميادين، ولم يقتنع هتلر بالهزيمة بل واصل القتال بتضحيات هائلة، ولكن هيهات له أن ينتصر، ومنيت ألمانيا بأكبر هزيمة فى تاريخها، وانتشر الخراب والدمار ودمر ربع مساكنها تقريباً، وانهار اقتصاد البلاد وتشرد المواطنون فى الشوارع والحوارى دون مأوى، وتوقفت الحياة وظن البعض أن القيامة قد قامت.

وهكذا أدى تهور هتلر وطموحه إلى قيام الحرب العالمية الثانية وقتل أربعة ملايين جندى، ونصف مليون مدنى ألماني فقط و ٥٥ مليون نسمة من الأبرياء فى كل العالم، وعم الخراب ألمانيا وبدا الوضع وكأنها النهاية، واحتاجت ألمانيا إلى معجزة اقتصادية حتى تقوم من الموت المحقق لها، وهذا ما فعلته ألمانيا الاتحادية بعد ذلك.

فكر الحلفاء فى أثناء الحرب فى مستقبل الأسد الجريح المهزوم (ألمانيا) وكيف يمكن القضاء على قوته حتى لا يعود إلى الحرب

والهجوم مرة أخرى، واقترح البعض تقسيم ألمانيا إلى عدة دويلات، كما اقترح البعض الآخر نزع سلاحها تمامًا واحتلالها عسكرياً عقاباً لها على أن تبقى كاملة ككل، على أن الأمر استقر بعد مؤتمر «بوتسدام» على تقسيم ألمانيا بعد استسلامها إلى أربع مناطق احتلال تشرف عليها الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي وبريطانيا وفرنسا، وكون الحكام العسكريون للمناطق الأربع مجلس رقابة الحلفاء، الذي تولى السلطة العليا في ألمانيا، ولم تتبع برلين أى منطقة من المناطق الأربع بل تولت الدول الأربع الكبرى إدارتها معاً بعد احتلالها.

وفي ٣٠ يوليو سنة ١٩٤٥ عقد مجلس الرقابة أول جلسة له وفي نفس الوقت اجتمع مؤتمر رؤساء حكومات الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبريطانيا في بوتسدام، وكانت أهمية نتائج هذا المؤتمر هي الاتفاق على المبادئ التالية في معاملة ألمانيا بعد هزيمتها: النزع الكامل للسلاح والقضاء التام على قوتها الحربية.. وإزالة الاشتراكية الوطنية «النازية» والتوزيع اللامركزي للاقتصاد، وإعادة بناء الحياة السياسية على أساس ديمقراطي، وعدم تشكيل حكومة مركزية لفترة معينة مع إنشاء عدة إدارات مركزية ألمانية متخصصة في عدد من المجالات المعنية تعمل كأجهزة مساعدة لمجلس الرقابة.

غير أن هذه النتائج لم توضع موضع التنفيذ بسبب تفسير كل

دولة للاتفاقية تفسيراً خاصاً يتفق مع وجهة نظرها ومصحتها، ومن هنا حالت فرنسا دون أى محاولة لتوحيد ألمانيا باستخدام حق الفيتو دون قيام السلطات المركزية الألمانية التي كان من المقرر إنشاؤها، كما اختلف المؤتمر حول مسألة التشكيل الديمقراطي لألمانيا، إذ اتفقت الدول الغربية الكبرى على المبادئ والخطوط الأساسية التي سيقوم عليها نظام الدولة والمجتمع في الدولة الألمانية القادمة، ومن هذه المبادئ ضرورة تحقيق الديمقراطية البرلمانية وحرية المواطن وحقوقه في الملكية الخاصة وباقي حقوق الإنسان وعلى العكس من ذلك كان الاتحاد السوفيتي لا يفهم - أو لا يرضى - بالتطبيق الديمقراطي إلا من خلال النظام الماركسي الذي تتحكم فيه الدولة عن طريق الحزب الشيوعي في جميع وسائل الإنتاج الهامة.

وعلى الرغم من أن هذه الاختلافات كانت اختلافات جوهرية فإنها لم تكن تشكل سوى جانب واحد من جوانب النزاع بين الشرق والغرب ذلك النزاع الذي سرعان ما اتسع وامتد إلى النطاق العالمي وتحول إلى حرب باردة، وقد أدت هذه الظروف إلى عدم تعاون الدول الأربع الكبرى في ألمانيا.. وفي مارس سنة ١٩٤٨ خرج الاتحاد السوفيتي من مجلس رقابة الحلفاء، وتطورت العلاقة إلى عدااء، واقتربت من حالة الحرب بين الحلفاء السابقين عندما قطع الاتحاد السوفيتي في ١٩٤٨، ١٩٤٩ جميع خطوط

المواصلات الواصلة إلى قطاعات برلين الغربية لأكثر من عشرة أشهر وفشل في ضمها إلى نطاق سيطرته، وتفاقت المشكلة الألمانية إلى درجة استحالة معها وجود حل لها.

مهدت الخلافات بين الدول الكبرى إلى قيام دولتين ألمانيتين هما:

١ - جمهورية ألمانيا الاتحادية.

٢ - جمهورية ألمانيا الديمقراطية.

جمهورية ألمانيا الاتحادية التي قامت بعد وضع القانون الأساسي في الثالث والعشرين من شهر مايو سنة ١٩٤٩، والذي أطلق عليه القانون الأساسي وليس الدستور ليجعل الباب مفتوحاً أمام الوحدة، وكان أول رئيس للبرلمان هو (كونراد أديناور)، وسارت جمهورية ألمانيا الاتحادية في فلك السياسة الغربية والانفتاح الاقتصادي مما جعلها تحقق المعجزة الاقتصادية وتعتبر محنة الخراب الاقتصادي والدمار الهائل الذي سببته الحرب.

أما الدولة الألمانية الثانية التي نشأت بسبب خلافات الدول الكبرى فهي جمهورية ألمانيا الديمقراطية التي أعلن عن قيامها في السابع من شهر أكتوبر من نفس العام سنة ١٩٤٩، واتخذت من برلين الشرقية عاصمة لها، وعمل الاتحاد السوفيتي على أن تسير ألمانيا الديمقراطية في فلكه سواء من الناحية الاقتصادية ليصبح

اقتصادها موجهاً مقيداً، ولا توجد ملكية خاصة بل كل وسائل الإنتاج ملك للدولة، كذلك أصبحت ألمانيا الديمقراطية تابعة سياسياً للمعسكر الاشتراكي الشيوعي، وانضمت عام ١٩٥٥ إلى حلف وارسو..

ونتيجة للضغط السياسي والمصاعب الاقتصادية حاول شعب ألمانيا الديمقراطية التعبير عن غضبه في ثورة ١٧ يونيو سنة ١٩٥٣ لكن القوات السوفيتية أسكنته تماماً، ومن ثم لم يجد الشباب المتطلع إلى حياة أفضل بدءاً من الهروب إلى ألمانيا الغربية حيث الاقتصاد الحر والحرية السياسية وحاولت سلطات ألمانيا الديمقراطية منع هذا الفرار والهروب عن طريق إنشاء خطوط حراسة ذات منشآت ضخمة من الأسلاك الشائكة عام ١٩٥٢ ووضع حقول ألغام على طول حدودها، ومع ذلك استمر هروب الشباب حتى وصل عدد الهاربين إلى ثلاثة ملايين ونصف مليون شخص إلى أن أقامت ألمانيا الديمقراطية سور برلين الشهير في الثالث عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٦١ وقد قلت نسبة الهاربين بعد إقامة السور بوضوح لصعوبة الهروب من خلاله والتعرض للموت.

على أن الدولتين الألمانيتين قد عبرتا في بداية قيامهما عن هدفها ورغبتها الشديدة في العمل على تحقيق الوحدة الألمانية المنشودة، وأن الشعب الألماني شعب واحد، وعلى الرغم من

المشاكل الكثيرة التي نشأت بينها والتي يرجع الفضل فيها إلى تدخل الدول الكبرى في شئون الدولتين إلا أنه أمكن في ٢١ ديسمبر سنة ١٩٧٢ إبرام معاهدة بينها تؤكد احترام كل دولة لاستقلال وحرية الأخرى داخلياً وخارجياً، وضرورة التنازل عن استخدام القوة مع العمل تدريجياً لتوسيع التعاون بينهما، كما أنشأت كل دولة تمثيلاً دائماً لها لدى مقر حكومة الأخرى.

ومع كل هذا فإن العلاقات بين الدولتين ما زالت متوترة أو بعيدة عن الهدف الأسمى وهو تحقيق الوحدة، ولنستعرض موقف كل من الدولتين حتى نقرب من الحقيقة:

تمسك جمهورية ألمانيا الاتحادية (الغربية) بأن الألمان في الشرق والغرب يكونون أمة واحدة، وهذا بحكم الظروف التاريخية والاجتماعية والثقافية، فإن حوالي ٤٠٪ من مواطني جمهورية ألمانيا الاتحادية لهم أقارب ومعارف في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، وعدد كبير من القادة السياسيين في جمهورية ألمانيا الاتحادية ولدوا في المنطقة التابعة لجمهورية ألمانيا الديمقراطية، في نفس الوقت الذي شهدت فيه المنطقة التابعة لألمانيا الاتحادية ميلاد عدد أيضاً من قادة ألمانيا الديمقراطية، هذا بجانب شعور الشعب في كل من الدولتين بالتاريخ المشترك واللغة الواحدة والآمال الثابتة، ومن هذا المنطلق لم تفكر ألمانيا الاتحادية في الاعتراف دولياً بألمانيا الديمقراطية كدولة أجنبية، بل إن القانون

الأساسى الذى يحكم ألمانيا الاتحادية يعترف بأن مواطن ألمانيا الديمقراطية هو مواطن ألماني مثله مثل أى مواطن فى جمهورية ألمانيا الاتحادية تماماً، له نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات، كما لا تفرض ألمانيا الاتحادية أية رسوم جمركية على البضائع المستوردة من ألمانيا الديمقراطية وتنقل رسائل البريد إليها بنفس قيمة رسوم الرسائل الداخلية.

أما عن موقف ألمانيا الديمقراطية فهو مختلف عن ذلك وخير دليل على ذلك أنها وصفت نفسها فى دستور ١٩٦٨ بأنها دولة اشتراكية من الأمة الألمانية وأن هدفها هو تحقيق التقارب بين الدولتين الألمانييتين خطوة بعد أخرى حتى الاتحاد، لكنها تراجعته عن هذا المفهوم وحذفت عام ١٩٧٤ من الدستور كل ما يشير إلى استمرار قيام الأمة الألمانية، وقالت إنه قامت فى الدولتين الألمانييتين أمتان منفصلتان تماماً.. هذا بجانب تصرفات سلطات ألمانيا الديمقراطية فى عدم السماح لمواطنيها بزيارة ألمانيا الاتحادية إلا فى حدود الاستثناءات، والمواطنين الذين بلغوا سن التقاعد فقط، كما رفعت تعريفه الدخول إليها أربعة أضعاف ما كانت عليه، بالإضافة إلى منع تسرب الأفكار من الغرب عن طريق منع الكتب والمجلات والصحف الألمانية الاتحادية من الدخول.

والسؤال الذى يفرض نفسه على كل زائر لألمانيا هو هل يمكن تحقيق وحدة الأمة الألمانية مرة ثانية ومتى؟

وقد توجهت بهذا السؤال لكل من قابلتهم من الشباب والمسؤولين، وكانت الإجابة: نعم، لا بد أن تتوحد ألمانيا في يوم ما.. متى؟ لا أحد يعرف.. ولكن الكل يجمع - على الرغم من وجود صعوبات كثيرة - على ضرورة الوحدة، وأرى أن وجود تمثيل دائم لكل من الألمانيتين لبعضها علامة إيجابية تعبر عن هذا الشعب المتحضر الذى يختلف لكنه يتفاهم ويتناقش، وإذا أراد الشعب الألماني تحقيق الوحدة حقيقة عليه أن يتمسك بحريته واستقلاله ويرفض تدخل الدول الكبرى في مصيره ومستقبله، فالدول الكبرى لا ترضى بالوحدة وتخاف من هذا الشعب المتحضر الذى وصل إلى أعلى درجات التقدم التكنولوجى الحديث.. وإذا استطاع الشعب الألماني توحيد أمته فإنه سيصبح إحدى القوى الكبرى فى العالم وهذا ماتخافه الدول الكبرى وتعمل له ألف حساب.

(٨) .

المرأة الألمانية تحاول كحواء فى كل مكان أن تلتحق بالرجل، وهى تعمل جاهدة من أجل المساواة الكاملة، وأعتقد أنها تهدف إلى أكثر من ذلك، وهى بجانب حبها للعمل واحترامها له جميلة تهتم بأنوثتها، سيدة مجتمع عاشقة للفن التشكيلى وزيارة المعارض ومشاهدة الأوبرا ومتابعة النهضة السينمائية، وهى لا تكتفى بما

وصلت إليه من تعليم جامعي ومقعد في الوزارة الاتحادية
وتشريعات خاصة تساويها بالرجل.

فالقانون الأساسي الذي وضع عام ١٩٤٩ نص على مساواة
الرجال والنساء، وفي عام ١٩٥٧ صدر قانون خاص ساوي في
المقام الأول بين حقوق الرجل والمرأة في الممتلكات الزوجية، ثم
صدر قانون آخر سنة ١٩٧٦ ونفذ سنة ١٩٧٧ حقق المساواة
الكاملة للمرأة، إذ حذف النص الخاص بأن المرأة مختصة بشئون
المنزل ومسئولة عنها، وإنه لا يجوز للمرأة ممارسة عمل مهني إذا
ما تعارض ذلك مع القيام بالتزاماتها في الحياة الزوجية وواجباتها
العائلية، وأصبح من الضرورة الآن أن يتفق الزوجان على تقسيم
نصيبها في الشؤون المنزلية والحياة المهنية، كما يحدد الآن اسم
الأسرة عند عقد القران باختيار اسم عائلة الزوج أو الزوجة.

وجميع أبواب التعليم في جمهورية ألمانيا الاتحادية مفتوحة على
قدم المساواة أمام المرأة، ويتضمن قانون العمل نصوصاً خاصة
لحماية المرأة في أثناء الحمل وبعد الوضع، ويحظر تشغيلها في
الأعمال الجسدية الشاقة التي لا تتفق وطبيعتها، كما يمنع تكلفتها
بالعمل ليلاً إلا بتصريح خاص.. ومنذ عام ١٩١٨ تتمتع المرأة
الألمانية بحق الانتخاب والترشيح وهي تمثل نسبة ٧,٧% من
أعضاء مجلس النواب وحوالي ٢٠% من الأعضاء في الأحزاب
الأربعة الكبرى.

وفي طريق الكفاح من أجل الوصول إلى مكانة الرجل بدأت المرأة الألمانية في تجربة جديدة هي دراسة التقنية الحديثة، والتدريب في ورش فنية، موزعة في مختلف أنحاء الولايات على الأعمال اليدوية الحرفية كال ميكانيكا والخراطة، وصناعة النماذج المعدنية، واستخدام الأدوات والوسائل الحرفية والصناعية والكهربية والكيماوية وصناعة الأخشاب، وقد بلغ عدد اللائح درين في الميادين المهنية والحرفية والفنية ١٧ ألف فتاة يعملن جنباً إلى جنب مع الرجال أو بدلاً منهم، وقد عبرت وزارة العلوم والتربية الاتحادية في بون عن ارتياحها لدخول المرأة هذا المجال.

غير أن ميداناً جديداً تحاول المرأة الألمانية اقتحامه هذه الأيام يعد آخر معقل من معاقل الرجال المهنية وهو قيادة الطائرات، فقد أعلنت إحدى شركات الطيران الألمانية المعروفة فتح الطريق أمام النساء للتدريب والعمل في قيادة الطائرات بشرط ألا يزيد عمر الفتاة المتقدمة عن ٢٤ سنة وأن تكون موفورة الصحة لا سيما في حاستي السمع والبصر، وأن تكون أسنانها سليمة وحاصلة على الشهادة الثانوية وتجيد اللغة الإنجليزية ويتراوح طولها بين ١٧٠ سم إلى ١٩٠ سم.. وقد تم قبول خمسين مرشحة لمدرسة قيادة الطيران لعام ١٩٨٢، وتتكلف الشركة ٤٠٠ ألف مارك لتعليم الشخص الواحد، كما ينتظر أن تكون نفس التكاليف لكل فتاة.. غير أن شركة الطيران تعتبر دخول المرأة في هذا

الميدان مغامرة كبيرة، وذلك لظروفها الخاصة بسبب انقطاعها عن العمل في حالة الإنجاب مدة ثمانية أسابيع مدفوعة الأجر، وضرورة عدم الإرهاق في أثناء الحمل، وتفكر الشركة في فرض شرط عدم الإنجاب لكل المتقدمات لكن القانون الألماني لا يسمح بذلك.

والسؤال الآن هو: هل ستثبت المرأة جدارتها في آخر ميدان تتحدى فيه الرجل؟ نرجو ذلك.

* * *

ومن المناظر المألوفة في المجتمع الألماني وجود بعض المعوقين في كافة الأعمال بعد تدريبهم، فتفاجأ وأنت تتعامل مع الألمان أن الشخص الذي أمامك ويؤدي عمله بإتقان معوق له أطراف صناعية ولكنك لن تلاحظ ذلك بسرعة فالمعوق أصبح إنساناً عادياً في المجتمع يعمل ويكسب لقمة عيشه بعرقه وجهده.. بل ويتمتع بحياته ويمارس رياضته المفضلة كالإنسان الكامل.

تحت شعار «التفاهم المشترك حياة مشتركة» شاركت جمهورية ألمانيا الاتحادية «الغربية» في السنة العالمية للمعوقين والتي أعلنتها الأمم المتحدة، وهذه المشاركة مظاهرها العديدة التي تتيح للمعوقين حياة أفضل عادية، وكان أول ما فعلته ألمانيا أن سنت قانوناً يسمح للأشخاص المعوقين وذى العاهات الصعبة حرية

استخدام وسائل المواصلات العامة بالمجان إذا كان تعطلهم يتجاوز الخمسين في المائة، بحيث يستطيعون اليوم استخدام مختلف أنواع المواصلات والمترو، والسكك الحديدية والسفن في دائرة قطرها خمسون كم بصورة مجانية، وهذا الامتياز الممنوح لذوى العاهات الصعبة يشمل أيضاً المكفوفين والمعوقين ذهنياً، كما يشمل الأشخاص المرافقين لهم والكلاب والمقاعد المتحركة، ولا ينظر لدخل المعوق عند منحه هذا الامتياز المجاني، ونتيجة لهذا القانون يتمتع مليون شخص من المعوقين في ألمانيا الاتحادية باستخدام وسائل المواصلات مجاناً... وتعوض الحكومة الاتحادية وحكومات الولايات مؤسسات المواصلات العامة على خسارتها نتيجة ذلك، وأبسط مثل عليه أن ولاية بافاريا وهى من الولايات الألمانية المهمة ازدادت نفقاتها فى هذا الميدان من ٩,٥ مليون مارك إلى ٣٨,١ مليون مارك.

وفى مجال العلم تحاول ألمانيا يومياً اختراع أجهزة جديدة تسهل الحياة للمعوقين وتساعدهم على الاعتماد على أنفسهم، مثال ذلك تصميم محطات خاصة لهم تسهل الركوب بوسائل النقل، كذلك أدخل تعديل على المقعد المتحرك الذى يجلس عليه الشخص المعاق، وينتقل به فى المصنع أو المخزن حتى يتناسب مع عمله، فقد زود المقعد بجهاز خاص يرفعه ويهبطه ويسهل للمعوق الجلوس عليه والتحرك به.. وقدمت شركة تليفونكن الألمانية

اختراعاً جديداً من نوعه يتلخص في إمكانية تحويل سطور صفحة كاملة من النصوص الجديدة المستخدمة في شاشات التليفزيون سطرًا فسطرًا بارزة على طريقة برايل ذات الأربعين مقطعاً بحيث أتاحت للشخص الكفيف قراءتها بوضوح، كما قدمت الشركات الأخرى بعض الأجهزة التي تساهم في تخفيف أعباء المعوقين، منها جهاز خاص للقراءة تتولى فيه عدسة خاصة قراءة الكتب سطرًا فسطرًا وتحويلها إلى حروف برايل البارزة والتي يقرأ عن طريقها المكفوفون.. ومن هذه الأجهزة أيضًا التي تعمل وفق طريقة برايل جهاز لقياس الحرارة يشير إلى درجة حرارة الغرفة ومياه الاستحمام بدرجة دقيقة جدًا.

ويقول حمدي عزام مستشار مصر الثقافي في ألمانيا الاتحادية في أثناء زيارتي لها، إن الاختراعات في ألمانيا لا تنتهي سواء في الطب العادي أو الخاص بالمعوقين، وهناك تطور كبير في المواد التي تستخدم في الأطراف الصناعية أو العمليات الجراحية، وتختار مواد ولدائن مناسبة لترتبط بأعصاب الجسم وتوفر أكبر قدر من الحركة المباشرة للمعوق حتى يعتمد على نفسه كلياً.

وأسأل حمدي عزام عن نتيجة عام المعوقين في ألمانيا الذي احتفل به سنة ١٩٨١؟

ألمانيا لها خبرة طويلة في ميدان المعوقين، وهذا نتيجة ظروف تاريخية معروفة أهمها الحرب العالمية الثانية، وعندهم عدد كبير من

المعوقين، ما زال جزء منهم يحتاج لرعاية، بالإضافة إلى المرضى الذين أصيبوا بسبب خطأ في استعمال أدوية كيميائية أو الأمراض الطبيعية عند الأطفال.. وهناك اهتمام كبير بالجيل الجديد ورعايته وبخاصة الأطفال والمعوقين منهم فهم يعتبرون المعوق مواطناً صالحاً يجب أن يأخذ فرصته كاملة في الحياة حتى يشارك في بناء مجتمعه، لذلك تتولى حكومات الولايات الإشراف على إعداد المعوقين لتحمل مسؤولياتهم عن طريق قسم العلاج الطبي ويشمل العمليات الجراحية أو العلاج الفسيولوجي والكيمياء، وعن طريق القسم الثاني وهو عمليات التدريب في معاهد ومستشفيات خاصة حتى يكتمل علاج المعوق ويعمل كالإنسان العادي.. الجديد في الأمر أنه كان يفصل في الماضي بين القسمين أما الآن فقد وجدت مؤسسات جديدة تجمع بين القسم الطبي بمفهوم المستشفى وقسم التأهيل بمعناه الفني بحيث يستمر العلاج دون انتقال أو إضاعة الوقت.

وعن التعاون بين مصر وألمانيا في مجال المعوقين يقول حمدى عزام: الواقع أنه يوجد تعاون بين مصر وألمانيا في هذا المجال فهناك تبادل خبرات عن طريق وفود مصرية تأتي إلى هنا في ألمانيا للوقوف على أحدث الطرق لعلاج المعوقين، كذلك تسافر وفود ألمانية لمصر لنفس الهدف ومنذ أربعة شهور حضر إلى ألمانيا وفد يضم أطباء وفنيين لدراسة طرق العلاج المختلفة، وهذه واجدة

من الميزات التي دفعت الألمان إلى الإعجاب بالسياسة المصرية والانفتاح المصري، فمصر أول دولة في الشرق الأوسط بل أستطيع أن أقول في العالم الثالث تعطي للمعوقين دورهم الكامل كمواطنين كاملين في المجتمع المصري وفي نفس الوقت تعدهم لتحمل مسئولياتهم.

هل هناك معوقون مصريون في ألمانيا؟

هناك حالات قليلة تحتاج لعلاج معين غير موجود في مصر، لأننا والحمد لله نملك في مصر أحدث الأجهزة المتطورة لعلاج المعوقين، كما توجد معاهد ومستشفيات متخصصة، ونكاد نكون في مصر على المستوى العالمي في علاج المعوقين، لذلك فالحالات التي تأتي إلى ألمانيا قليلة لكن هناك معوقون مصريون يأتون إلى هنا أو إلى النمسا للاشتراك في المسابقات الرياضية التي تنظم لهم مثل كرة القدم والسلة أو القيام برحلات مشتركة ونشاط اجتماعي وهذا يتم على مستوى دولي يشترك فيه معوقون من كل دول العالم التي يوجد بها تنظيم خاص بهذا الشأن.

ونحن نتشرف حقيقة بتمثيل مصر دائماً والوفود التي تأتي يجرى اختيارها بدقة ونشعر أنهم خير سفراء لمصر.

هل توجد أندية للمعوقين في ألمانيا؟

نعم توجد أندية للمعوقين في كل مدينة ألمانية تقريباً، تسهم

فيها وزارات الشؤون الاجتماعية في كل ولاية وهناك شعور شعبي قوى للاهتمام بالمعوقين مما يلقي العبء الأساسي في إقامة هذه الأندية والمؤسسات والصرف عليها على الجمعيات الشعبية غير الحكومية التي تتولى أيضاً توفير المناخ الثقافي والاجتماعي والصحي للمعوقين، وقد وصل الأمر في ألمانيا إلى حد أن المعوق لا يشعر اليوم بفرق كبير بينه وبين الإنسان العادي، وكما يقولون ستصل عملية المعوقين إلى درجة لا تخرج عن الشخص الذي يستخدم نظارة طبية لأن نظره ضعيف، وقد اقترب الألمان من ذلك فعلاً.

وهكذا يخدم العلم والتكنولوجيا الإنسان في كل مكان، ل يتمتع بحياته ويعمل ويجتهد حتى إذا كان معوقاً فالمعوق إنسان له كل الحقوق وعليه كل الواجبات وسيكون في المستقبل إنساناً عادياً.

(٩)

استطعت في ألمانيا أن أمارس هواية المشي، وهي من هواياتي التي - للأسف - لا أمارسها في القاهرة لأسباب كثيرة تعرفها صديقي القارئ وهذا يدفعني إلى حسد تلاميذ الفيلسوف أرسطو على الساعات الطويلة التي قضوها مع أستاذهم يتناقشون وهم سائرون، ولذلك أطلق على مدرستهم لقب المشائية.. في ألمانيا كنت

أفضل المشى على ركوب السيارة إذا كان المكان قريباً، وربما تسبب ذلك في مضايقة مرافقتي، لكن ماذا أفعل وأنا محروم من المشى بسبب ظروف شوارع القاهرة؟

في إحدى المرات التي كنت أمتع فيها بممارسة هوايتي هذه تجمدت قدمي مرة واحدة وتوقفت عيناى فجأة أمام منظر لم أكن أتوقعه أبداً في ألمانيا الاتحادية.. شحاذ يجلس على الرصيف ممداً ذراعه طالباً المساعدة.

ولم أصدق نفسي.. هل هناك شحاذون فعلاً...؟

وأين هي المعجزة الاقتصادية التي حققتها ألمانيا الاتحادية؟

وكيف تساعد الحكومة الدول النامية بلايين الماركات سنوياً وتترك هؤلاء الشحاذين في شوارعها يسيثون إلى جماها ونظامها؟ أسئلة كثيرة دارت في ذهني وأغرقتني في تفكير طويل بحثاً عن إجابة لها.

ومن عجب أن للشحاذة فنون وأصول هناك، فالشحاذ يجب أن يحصل على ترخيص من الحكومة يصرح له بالشحاذة ويحدد له المكان المخصص المسموح له بالتجول أو الجلوس فيه، وهناك حكاية طريفة يتناقلونها على سبيل الضحك والتعجب في نفس الوقت عن الشحاذ الذي كان يجلس على باب بيت عمدة برلين أثناء دخول أحد الضيوف الأجانب مما ضايق العمدة وأمر حراسه

بطرده من أمام بيته... لكن الشحاذ رفض التحرك من مكانه وأخرج من جيبه التصريح الرسمي فلم يستطع الحارس أن يفعل معه شيئاً، لأن القانون قانون.. والقانون سيد المجتمع في هذه البلاد المتحضرة.

والشحاذون ينتشرون في كل مكان خاصة أمام الكنائس وفي زوايا الشوارع، والحكومة الألمانية تمنح هؤلاء الشحاذين مرتبات أو مساعدات شهرية لكنها لا تكفيهم مع الارتفاع الجنوني في الأسعار، ومن هنا تسمح لهم بالشحاذة حتى يعيشوا حياة معقولة.. وهذا النوع من الشحاذين من كبار السن أى المسنين من الرجال والنساء وبعضهم مرضى بإدمان تناول الخمور، وبجانب هؤلاء هناك شحاذون شباب لكنهم لا يمدون أيديهم لك بل هم من هواة الفن والموسيقى، وتجدهم ينتشرون في الميادين والشوارع المزدهمة على الأرصفة وفي محطات المترو تحت الأرض (الأندرجراوند) يعزفون على الآلات الموسيقية المختلفة جيتار.. كمان.. أكورديون.. إلخ ولا يتحدثون معك وعلى الأرض تجد حقيبة الآلة الموسيقية مفتوحة بدلا من ذراعه حتى تضع ما تجود به، وهذه طريقة رقيقة في الشحاذة بالطبع ومعظم المشاهدين أو السامعين أو المعجبين من الأطفال أو الكبار الذين يصطحبون أطفالهم، كما تفاجأ أيضاً وأنت تمشى في الشارع ببعض الفتيات اللاتي يقترين منك ليطلبن مساعدتك لهن بالمال للقيام برحلة أو تكملة الدراسة أو أى سبب

آخر، ومعظم هؤلاء مواطنون ومواطنات غير ألمان لأن ألمانيا تحفل بالجنسيات المتباينة من كل قارات العالم.

وأعود لأقول لك إن منظر الشحاذين أثار دهشتي لأنني لم أتوقع أن أراه في المجتمع الألماني الغني المتحضر، ومع ذلك فهذا لا يسىء للمجتمع ككل لأن الشحاذين قليلون وبعضهم مرضى بالإدمان وآخرون ليسوا بألمان بل من خنافس أوروبا، وعلى العموم أعتقد أن من واجب الحكومة الاتحادية أو الحكومات المحلية معالجة هذه الظاهرة حتى لا تتفشى وتصبح وباء يهدد المجتمع.

وما دمنا نتحدث عن النظام في ألمانيا وضرورة الحصول على تصريح أو ترخيص حتى للشحاذين فإنه يجدر بنا أن نشير أيضاً إلى هواة صيد الأسماك وكيف أنه لا يسمح لأى مواطن أن يمارس هوايته هذه إلا بعد اجتياز امتحان معين فيها يحصل بعده على ترخيص بذلك.

من مميزات المجتمع الألماني وجود الإحصائيات في مختلف المجالات المتباينة في العلم والاقتصاد والسياسة، وحتى في الاحتفالات والمهرجانات، تقول الإحصائيات إنه يوجد في جمهورية ألمانيا الاتحادية حوالى ألف وخمسة مئة متحف في مختلف الأنواع والموضوعات، ومن المهرجانات الهامة التي تشهدها ميونيخ مهرجان أكتوبر الذى يقام منذ عام ١٨١٠م فى أواخر شهر

سبتمبر من كل عام، ويعتبر عيداً شعبياً مفعماً بالتقاليد، وتقول الإحصائيات أيضاً إن هذا المهرجان يستمر سنوياً مدة ١٦ يوماً ويشارك فيه خمسة ملايين ونصف المليون شخص يتناولون ١,٣ مليون زوج من السجق و ٥٠٠ ألف دجاجة مشوية و ٢٠٠٠ قنطار من السمك و ٢٠ ألف ركبة عجل و ٣٥ ثوراً مشوياً إلى جانب ٤ ملايين لتر من الجعة (البيرة).

وبمناسبة الجعة أو البيرة فإن قدماء المصريين هم الذين صنعوها في البداية وثلّموا بها، وتقول الإحصائيات إن في ألمانيا حوالى مائة نوع من البيرة تصنع فيما يزيد عن ١٥٠٠ مصنع، وطريقة صنعها تجرى وفق الطريقة القديمة التي يعود تاريخها إلى عام ١٥١٦ باستخدام الماء وحشيشة الدينار والشعير والخميرة.

* * *

جنون تشجيع كرة القدم وصل إلى ألمانيا، بل وله مظاهر هدامة بعيدة عن الروح الرياضية، فمظاهرات التشجيع تسير في الشوارع وربما تدمر وتكسر كل شىء، في هامبورج رأيت مظاهرة كروية تضم آلاف المشجعين، ونصحنى مرافقى إن أمشى من شارع آخر حتى لا أصاب من المشجعين المرضى بهوس الكرة وقلت لنفسى حتى في ألمانيا!

وبمناسبة الكرة فإن أشهر فريقين في ألمانيا الاتحادية هما فريقا

ميونيخ وهامبورج وشهرتها مثل شهرة الأهلئ والزمالك فى مصر..
وقد سبق لمنتخب ألمانيا الاتحادية أن فاز ببطولة العالم مرتين فى
عام ١٩٥٤ ثم بعد ذلك بعشرين سنة فى ميونيخ.

مظاهرة أخرى شدتنى فى هامبورج ولكنها مظاهرة ليلية فنية
للشباب، مجموعة من الفتيات والفتيان فى عمر الزهور يدقون
الطبول وينفخون فى الآلات النحاسية وعلى وجوههم أصباغ
كثيرة متباينة الألوان أو أقنعة تخفى ملامح وجوههم، وبعضهم
يرقص وآخرون يحملون زميلاً لهم على أكتافهم.. عصاة وزمبليظة
لا حد لها، تماماً كما يفعل المجاذيب فى الزار عندنا فى موالد أولياء
الله الصالحين، وعرفت أنه قبل القيام بهذه المظاهرة الفنية الليلية
أخذ الشباب تصريحاً من الحكومة للقيام بها خلال مدة ساعتين
فقط وفى مكان محدد أيضاً، وأعجبنى النظام فى كل شئ أما عن
سبب هذه المظاهرة الفنية الموسيقية فهو منح الحرية للشباب
للتفيس عن طاقاته بالعزف والرقص والمشى.

ومن المناظر المألوفة فى مدن ألمانيا وجود الدرّاجات فى
الشوارع خاصة درّاجات النساء، هذا مع أن المواصلات هناك
متعة حقيقية فى النظام والهدوء وعدم الزحام.

احترام الوقت من مظاهر المجتمع الألماني وكل المجتمعات
المتحضرة، ومع ذلك عجبت لأن مرافقى كان يحضر إلى الفندق

لقابلتي بعد ثمان دقائق بالضبط من الموعد المحدد، وكنت أبتسم عندما أراه متأخراً هذه الدقائق بالضبط، وأقول لنفسى إنه منضبط على التأخير، وأخيراً اكتشفت أن ساعتى هى غير المنضبطة فقد كانت تقدم ثمان دقائق بالضبط.

نسبة المؤمنين فى ألمانيا الغربية كبيرة، ولكن ليسوا جميعاً مشتركين فى الكنيسة لأنها تشترط على من يريد الالتحاق بها أوتسجيل اسمه ضمن المؤمنين دفع مبلغ معين من المال يخصم من مرتبه، ولذلك فهناك مؤمنون حقيقيون لا تعترف بهم الكنيسة لأنهم غير مشتركين فيها، وهم يرون أن واجب الكنيسة إعطاء الحرية للجميع للتبرع بدافع من عندهم لا بقوة القانون.

لا شك أن المجتمع الألماني يتمتع بالرفاهية ولكنه فى نفس الوقت يعانى منها فللرفاهية مشاكلها أيضاً، وقد ساعدت الرفاهية مع الحرية على انتشار مرض الإدمان بين الشباب.. وتقول الإحصائيات إن أكثر من أربعين ألفاً من شباب ألمانيا الاتحادية مصابون بالإدمان، منهم ٣٠ ألفاً يتعاطون الهيروين ومعظمهم بين ١٨ و ٢٢ سنة من العمر، ويوجد مليون شاب على الأقل جربوا المخدرات مرة فأكثر، و ٩٠% من هؤلاء جربوا الحشيش بصورة خاصة، وخلال عام ١٩٨٠ مات ٤٩٤ شاباً نتيجة الإدمان على المخدرات، أما التدخين العادى فيجربه الفتيان والفتيات وهم بعد فى التاسعة من عمرهم، وخمسون فى المائة من الشباب فى سن ١٦

وأكثر لهم علاقات جنسية معروفة، وإذا بحثت عن أسباب المشكلة الخطيرة هذه فستجد أهمها الحرية الزائدة للشباب، الحرية منذ الطفولة ثم الحرية في سن المراهقة والتي تصل إلى إن يترك الفتى أو الفتاة بيت الأسرة ويعيش في حجرة أو شقة مستقلة به، ومن هنا يفكر في أن يجتمع بأصدقائه وصدقائه ويمارس ما يشاء له من عادات وأفعال يمكن أن تضرَّ به في المستقبل بعيداً عن رقابة الأسرة خاصة الوالد.. ثم يساعد المجتمع على ذلك عن طريق التقدم العلمي والاكتشافات الحديثة.

من صفات الألمان العظمة والثقة الزائدة بالنفس، وأبسط مثل على حب العظمة هو شراء الملابس من متاجر معينة تباع نفس الخامات والملابس التي تبيعها متاجر أخرى بنصف الثمن لكن المتاجر المعينة تضع عليها بعض الحروف مثل C أو B وهذه الحروف تثبت أنك رجل غنى عظيم تشتري من المتجر المعروف إياه، مع أن الملابس والخامة والتفصيل واحد... عجيب.